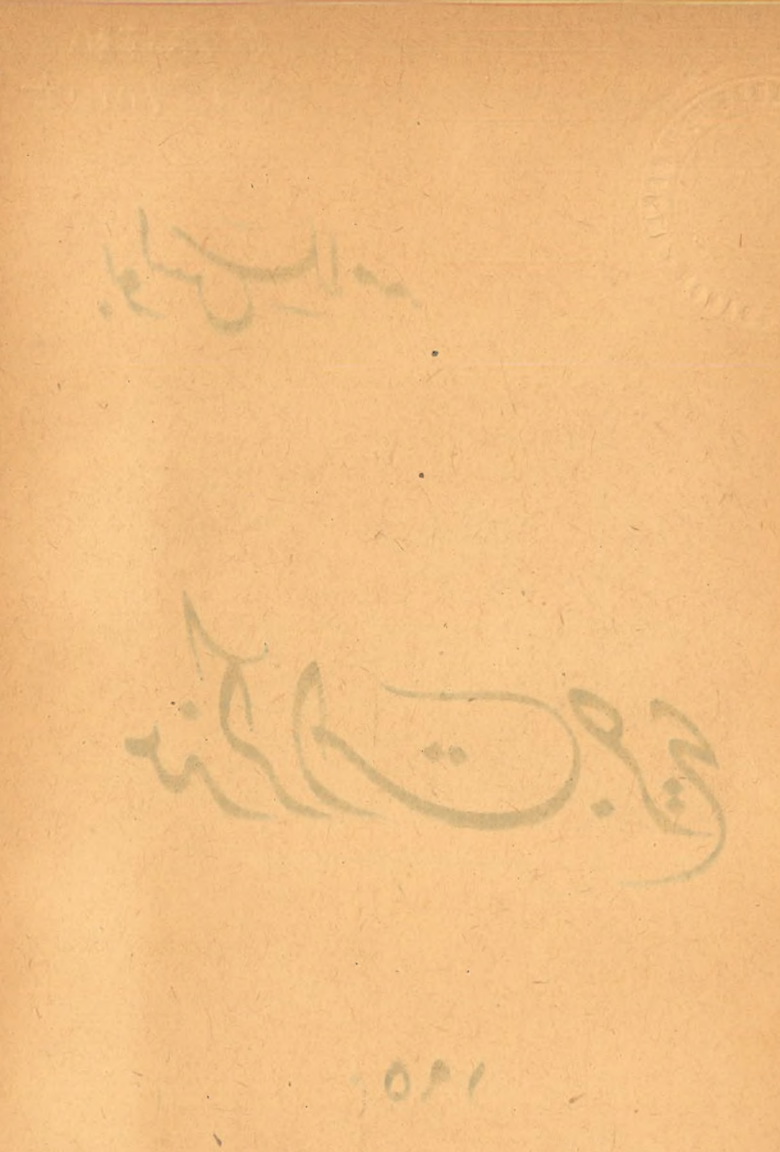
بولس سلامه

مذكرات جريح

١٩٥٠

مطبعة النسر - بيروت - تلفون ٣٧-١٩





المؤلف يكتب مذكراته

الاهداء

الى زوجتي التي شاطرتني متاعب هذه الحياة

* على العتبة *

بقلم الاستاذ الجليل :

السيد صدر الدين شرف الدين

قد تحسبك امام قصة لا على التعيين من قصص الألم الكثيرة المتنوعة التي يشقى بها الناس في يومك الحاضر ، مثلما شقوا بها في امسك الغابر .

وقد تحسبك امام قصة معينة من تلك القصص الماضية الحاضرة هي قصة بولس سلامة بالذات .

وما حسبت من هذين فانت من الحق بين بين ، انت غير مخطىء كل الخطأ ولا مصيب كل الصواب في ان تحسب (مذكرات جريح) قصة عامة نوعية لألم عام نوعي ، وانت غير مخطىء كذلك كل الخطأ ، ولا مصيب كل الصواب في ان تحسب (مذكرات جريح) قصة خاصة شخصية لألم خاص شخصي ، فهي في الواقع مزاج من الامرين معاً ، تأخذ من هذا ومن ذاك على السواء بحظ يكفل لك الصواب ولا ينفي مع ذلك عنك الخطأ

في حسبان كل منهما على انفراد ، ولكنك تضمن الصواب دون خطأ بتاتا حين تراها عملا مشتركا بين العاملين هذين المتكافلين على ابداعها تكافلا له موضعه الملحوظ المحظوظ بين قيمها الفنية .

فالحادث الجزئي مصدر هذه المذكرات ، ولكن الصورة الكلية مدارها في نطاقها (الموضوعي) ومجراها المنساب في اعماق الحياة انسياباً صافيا يخرج من الاصلاد والمغاور ينابيعَ تفجّر الخير او مطراً يعقب الصحو .

من هذا وذاك امتزج ادب (مذكرات جريح) الامتزاج الذي حدثتك عنه ، فكان من هـــذا الادب الطري الشهي الغض القائم على التجربـة الفردية في سبيل اكتشاف الاسرار النوعية ، وبهذا كان ايضا من ادب النفس الخالص الذي يحوّل سيئة (انا) وسماجتها ، الى حسنـــة وعذوبة تُنزلانها في النفس منزل الرضى والاقبال والمتعة .

هذه ميزة انا اظن انهـا لا تتفق لاقلام كثيرة ممن نقرأ لهم ونعجب باثارهم ، ثم اظن انها تنفتح عن ميزة اخرى تضاعف قيمة هـذا القلم الولود السبّاح ، وهي ميزة التأثر بالمشاركات الذهنية المستحدثة ، والاستقاء من روافـد شتى يستدعيها الكاتب الضليع من اماكنها المتفرقة ، فاذا اقبلن طيّعات سلسا قيادهن ، صاغهن في وحدة منسجمة اتم ما يكون الانسجام ، ووضع كلا منهن في مكانه تملؤه وتشير الى وجه مما اراده . والى معنى مما قصد اليه .

واظن ان الادب الذي كان يرضي البلاغيين القدمـــاء أصبح يغضب البلاغيين المحدثين ويغيظهم ، فهؤلاء ادخلوا على شروط اولئك شروطاً اخرى ان لم نقل نسخوها نسخاً ، فاذا الادب اليوم لا يعتمـد على حفظ النصوص ، ورواية الشعر والاخبـار ، وتقليد الاساليب البدوية والعباسية ، ودراسة علوم اللغة العربية وآدابها ، وانما هو يتسع ويعمق ويخطو الى جملة من العلوم والفنون تكوّن ثقافته العامة فيُلمّ بها جميعاً الماماً لا يجعله منها بمعزل بعيد المنتأى ، ثم يتصل منها اتصالاً وثيقاً بما كعـلم النفس والاجتماع والاخلاق والاديان والاقتصاد والسياسة وفقـه التاريخ ، هذه المعلومات التي تعينه على تعمق الحياة والتعبير عنها ، والتأثر بهـا فيما يخوضـه من موضوعاتها ، او يديره من احاديثها . ذلك لان نقل وجداناته واجوائه عاد امراً معقداً كتعقد الحياة التي يعيشها في هذا الخضم الزاخر بحاجات معقدة لا تحل الا بهذه الادوات التي يدعو اليهـا الادباء المحدثون ، والتي يفقد بفقدانها الادب اهم عناصره ، واظهر مزاياه .

بهذا تظهر فائدة الميزة الثانية ، ومنه يتضح ان هذه المذكرات من الادب الذي يدعو اليه البلاغيون المحدثون . ويمارسه فرسان القلم المعروفون بسعة الافق وعمق النظرة ووضوح العبارة ، والتقاء المعلومات على ابراز الصورة . وتحديد الفكرة .

نعم ربما اخذ على هذا الاسلوب ميله الى ما يشبه الاستطراد

ونزوعه الى الاستجابات التي كان يشير اليها القدماء بقولهم : « الشيء بالشيء يذكر » . ولكن الذي يبدو لي ان هذا في (مذكرات جريح) ليس استطراداً من اجل الاستطراد . بل هو شيء من الاستقصاء الملازم للذهن الجوال في مثل هذا النوع من انواع الاساليب البيانية بخاصة

واما وقد قادتنا الملاحظة الى الدنو من النقد ، فاحب ان المح الى ان هذه المشاركات ليست من (المركبات) التي يعرض مثلها (اللاقطون) من فضوليي الادب والمتطفلين عليه . بل هي في (مذكرات جريح) كائنات عضوية يفترعها جذع واشج الصلة بعمق فيما يمر به من الوان المعرفة . واللمحات . فانت — في المذكرات هذه امام (تحصيل) يعطيك انها عانت الاطلاع وعاشته.

ولا تكلفني ان اسوق الامثلة والشواهد . فانا اقول هذه الكلمة على عتبة الكتاب ، وامامك منه صفحات كثار ستعاشرها معاشرة لا تكتفي منك بالليالي والايام . بل انها لتطمح الى ان تعاشرها اسابيع وشهوراً . فعسى ان تحمل عني جهد الانتقاء ، وتوفر علي عبء التطويل .

هذه كلمة تختصر القول في مميزات مذكرات جريح ، في خصال ينفرد بها هذا الكتاب عن غيره من منشئات الادب الحديث . وهو يشارك غيره بالصفات العامة التي يحفظها نقاد هذا الزمان . من تجويد وابداع واتقان .

واحب ان ارى شيئاً آخر في هذا الكتاب ، احب ان ارى الى معدنه الفني الذي وهّج تلك الخصائص ، والى مصادر هذا المعدن لنرى صلته بصاحبه من جهة . وصلته بواقعه من جهة اخرى

وما اظنني اجد مشقة محرجة في الكشف عن معدن هذا الكتاب الفني وهو من اثار عبقري أثر لعله اجمع آثاره لخصائصه وانطقها بمواهبه . واحصاها لتجاربة .

فالاستاذ بولس تخطى الى كونه الادبي المجنح مراحل (حضّرته) تحضيراً ادبياً يحتم عليه ان يكون اديباً . فلو لم يرد الادب لما استطاع ، ذلك لأن مراحله الخالقة كانت مراحل اديب بذوقها ومزاجها وادواتها جميعاً .

خلق وفي نفسه هبة الحس المرهف . والمنطق المصور . والفكر المنظم . فكان ملهما بالفطرة ، ثم خلق على هذه الصورة في عش من اعشاش الجمال الابكار ، للنسيم فيه لحن . وللغصون حوله انغام . وللطير في سمعه اوزان ، وللجبال والاودية دونه جلال .

ولم يكد يُعجن تبره بهذا العطر حتى قدمته مراحله الى الفقه بعد دراسة منظمة القت اليه مفاتيح ثقافة عامة تلج باستعداده كل باب من ابواب المعرفة دونما عنت ، ولا استعصاء ، ولا حران ،

ومن الفقه استوى قاضياً يحمل الميزان . ويعود الى الادب حين خيل اليه انه فارقه يوم اغرق نفسه بتعمق (الحقوق) والتبحر في القوانين . والتمهر بمقدماته من علوم (الرتبة) التي تقع في سلّمها .

عاد الى الادب . الى صميمه . لاني ازعم ان الادب والقضاء صنوان . نلمح القرابة بينهما نظرياً . بدقة الملاحظة . وميزان النقد . وصحة الاستنتاج . ثم نلمح القرابة بينهما عملياً . بعدالة الاحكام . ودقة الموازين . وصدق التجربة . وليس كالمحكمة (مختبر) يركّب فيها الاديب معرفته بالحياة خواطر وصوراً على ضوء المشاهد والوقائع الحية .

فانت تراه اديبا يوم خلق موهوبا ، ثم تراه اديبا يوم ولد في محيط موهوب ، ثم تراه مدفوعا الى الادب يوم اختص بالقضاء . فانت ترى ان الادب يرصد له الطرق ، ويأخذ عليه اسباب الحياة فيأبى الا ان يحتازه ويستأثر به . ويحيطه بما يدقق حسه ويزكي ملكته . ويصفي وجدانه ، ويأبى في طريق هذا الحرص الشديد على حيازته الا ان يمد معينه بتجارب العدل هذه التجارب التى تتبلور في حياة القاضي الاديب ما لا تتبلور في حياة الاديب المحض .

انظر ان الادب اكتفى من الاستئثار باديبنا والحرص عليه بما

سمعت ؟ من الخير ان تصغي الى آخر الحديث من هذه القصة ، فان الادب كما يبدو ، عاشق للاستاذ سلامة مصاب بالغيرة القاسية ، والحب المحموم ، فقد امتحنه بالصبر ، وصبّ عليه من الالم اشده واوجعه . فقضى عليه الاسر مشدوداً الى سريره شداً مستوعبا لم يترك منه غير عينين تستوحيان . ولسان يبلّغ. وانامل تنسج مثل هذا الحرير :

عند هذا الحد بلغ الادب من صاحبه القمة . فكان الالم اهم العوامل التي ينطلق منها ادبه نقي العبارة . نقي الضمير . نقي الفكر . ذلك لان الالم هو النار العظيمة الصاهرة التي ترتفع بالمدارك السليمة حتى تشرف على حقائق الطبيعة ، وتستشف اخلاق البشر ، وتلامس النفس الانسانية في اغوارها واجوائها ، فتستخرج من كل هذا علما يضيء العقل ، وفنا يغذو القلب ، وعبراً تخفف من قسوة الحياة .

واعظم مظاهر النجاح عندي في تأثير هذا العامل الضخم من عوامل الادب في نفس صاحبنا انه وجهه توجيها ايمانيا مشرقا وارسله يعب ويغترف من النبعة الانسانية قبل انحدار جداولها بين الاوحال والأوشاب الآسنة . فاذا هو يقبس النور من شرارة المسيحية الاصيلة . ويمشي على هدي فلسفتها الخيرة بأمل ريّق . والم ريّق ايضاً .

ومن هنا بدت له حقائق الاشياء في سلامتها مجردة متلاقية

المبادىء على صعيد الاخلاق والتعاليم المتفق عليها لدى المصلحين عامة ، وبهذا دون غيره تستطيع ان تفسر ملحمـــة الغدير التي كانت لونا من الوان هذه الظاهرة ، ونتيجة من نتائج انفعاله بالألم ذلك الانفعال الباهر .

وفي هذه المذكرات من هذا كله فصول تتصل بصاحبنـــا اتصال الدماء بجراحاتها الناطقة ، واعني ان اعيدك الى مـا نحن بسبيله من النظر في صلة هذا الكتاب بصاحبه ، على معنى الصدق في التعبير عنه ، لا على معنى انه يتحدث عن نفسه ، وانما احترز بهذا القيد لئلا يذهب بك الظن الى انني نسيت شيئاً مما اثبته في صدر هذه الكلمة .

بقي ان نرى صلة الكتاب بواقع الحياة وعسى ان يغني عنـا في هذه الناحية قوله في تصدير المذكرات :

« **واتمنى** الا يقع هذا الكتاب في يد غني بطر ، او لئيم أشِر ، او حديث نعمة رين على بصيرته ، او موظف سيّج على قلبه بالبذخ والكبرياء ، فكل هؤلاء يتخذون من ألامي هزؤا ، او موضوع تندّر ، لانهم ينظرون الى الاشقياء من علُ ، كأن بينهم وبين المساكين مثل الهاوية التي بين أليعازر والغني .

اللهم اعصم هذه الصفحات المطهرة بالعذاب الذي افرغت علي ، من الهوان في الايادي الزهمة ، وصن حروفـها من المرور في

الخناجر الفواجر ، والعبور في خواطر موتى الشعور والضمائر ، فلا يقرأها حديث نعمة او ثريّ حرب ، لئلا يقع في يـدي او يد اولادي من بعدي فلس اختلسه لئيم احتكر من كف فقير محتضر ثمنـاً لدواء او لرغيف ، اي فلس اكتنفه الحرام من جهات ثلاث كما اكتنف التحريم خمرة ابي نؤاس ، اذ اقسم ان لا يشربها ما لم تكن مشتراة بثمن خنزير مسروق »

هذه القطعة ، من فصل وحده يعبر اصدق تعبير عن صـلة الكتاب بواقع الحياة المضطربة حوله بالآثام والمفاسد . المتحركة بالارزاء والمحن ، ويصور لك هذه الحياة ـ الى ذلك ـ اصدق تصوير واروعه ايضاً . وليس هذا فحسب . بل انه يضع يدك على اثر الالم في تطهير هذه النفس وتساميه بها الى حيث اشرنا آنفا .

وما ادري – بعد – أيدرك الواعون ممـن يعنون بقيم (الحرف) عظيم المسئولية في استقبال مثل هـذا الكتاب ، ويعشون من الادراك الى مغزى تحريم هـذه الحروف عـلى كل بطر أشر ؟

انا ارجو ذلك . فان في الكتـاب قيماً من (الحرف والروح من حقوقها ان تتعدد طبعات هذا الكتاب وليكن ذلك قياساً لعدد احرار القراء .

صدرالدين شرف الدين

بيروت ٥ – ١٢ – ١٩٥٠

* تصدير للمؤلف *

لا تخف من عنوان الكتاب فتحسب هذه الفصول مدخلا للأسى او مثاراً للشجن وانقباض الصدور ، لاني أربأ بنفسي ان أروح غمامة سوداء في بالك الصاحي واجوائك البواسم ، اذا كنت رخيّ العيش ، ايامك أغنيات ولياليك مواسم

اما اذا كنت في الذين تنكّرت لهم الدنيا حتى لا تمر الأنات في حناجرهم الا موصولة فتكون أنفاسهم آهات داميات ، فها هو الجريح يضع بين يديك سفر عزاء لن تجد له في الاساطير ولا في تأريخ الممتحنين مثيلا . وليس هذا الدفر بجانب الواقع الا صورة البحر تراها في فصول ، او رقعة ملونة في الخريطة بالنسبة الى ما ترمز اليه من انهار وغابات وقفار .

رغب الي بعض اصحابي ان أضع للنشء قصة مدارها الاخلاق لعلها تصرف الشباب عن القمامات التي تقذفهم بها المطابع ولا تذوب حروفها خجلا مما جسدت في الطروس من آيات الفحشاء ، ومما زيّنت للقلوب الغريرة من شر يجتذبها اجتذاب المصباح الفراشات الحائرة ، تحسب الضوء المتألق باب خلاصها ، وهو في الحقيقة باب قبرها

ورغب الي آخرون ان اضع مأساة شعرية تكون افعل في النفس لقربها من الواقع اذ المسرح الفني رمز للوجود ، ذلك المسرح الاكبر . فاستعرضت مواضيع المآسي والعبر ، فلم اجد اروع من مأساة انا بطلها الشهيد وقد كُفيت مشقة اعتماد الخيال في التصوير لانها أغرب من الاساطير مهما اختصرت واوجزت في سرد الوقائع . ولو اكتفيت بتفصيل أهم الاحداث التي مرت بي في مدى اربع عشرة سنة لاستغرقت مطالعتها اربعة عشر يوماً على الاقل ، وذلك خروج على مبدإ الوحدات الثلاث في المآسي الكلاسيكية (لو كانت مأساتي تمثيلية) فضلاً عما في ذلك من الانانية وقلة الكياسة .

ولكني في الوقائع التي اخترتها ، لم اقتصر على الوصف والبيان المجرد وإن هو الا اداء وتعبير مهما لبس من زخرف الكلم الانيق ، بل أنرت الحوادث بقبس فلسفي ضئيل ، واحسب ان هذا النهج أليق بك وبي في هذه الحقبة من الزمن ، وقد سيّرت الفلسفة الوجودية رسلها الى كل ذات تشعر بالوجود .

البديهي والواقع والوجدان والوجود تتفتح عليها البصائر اليوم الا من ركن . وها انا اقدم لك صفحة مضطربة سلختها من جوارحي ، من صميم الوجود ، من سورة اللحم والدم وقلق النفس المشرئبة الى اللانهاية . يقول نيتشه : « لا طريق تؤدي من مفهوم الاشياء الى جوهرها ، لذلك لا وسيلة لمعرفة المأساة اليونانية

الا ان تكون سوفوكلس » . ويقول الشاعر :

لا يعرف الشوق الا من يكابده
ولا الصبابة الا من يعانيها

ولقد عانيت المشاكل التي اسرد بعضها في هذه الفصول وعشتها :

و « تمرست بالآفات حتى تركتها
تقول امات الموت ام ذعر الذعر

على حد قول المتنبي .

فما ابعدني في هذه المذكرات عن خيال « المتفرجين » الذين يلوّنون الامور بالالوان العابرة في مخيلاتهم الجامحة ، ويقوّمون القيم مكتفين بالعقل البارد المتوكىء على المنطق الجامد . وما كنت لأدّعي سبقاً ولا عصمة في ما قدمت من آراء ، وانما يشفع بي في مواطن الزلل ، حسن النية واعتمادي على التجربة ، حسّية كانت ام روحية .

وكان الاخلاص دليلي في ما اكتب فتجردت من كل شيء الا من حقيقتي العارية ، وآثرت ابداء مقاتلي على التلبّس بلباس المصانعة ، اذ الأجدر بي ان استجلب لومك مصارحاً من ان انال رضاك مداجياً .

وقصدت تلطيف المأساة بان خلعت عليها بعض الوان المهزلة لسببين : اولهما اجتناب الحديث المتشابه والنغم الواحد ، وثانيهما مطاوعة الحياة في جدها وهزلها . وإن هي الا هزل وجد ،

والطرفان يلتقيان وينفصلان في حركة دائرية حتى يكاد التاريخ يعيد نفسه . وتعمدت الانشاء السائغ ليظل التعبير في متناول القرّاء جميعاً وبخاصة المرضى والمتألمين منهم ، وهم اجدر الناس بهذه الفصول ، واياهم اعني عندما اسوق الكلام في صعيد المطلق ، واحسب انهم يستشعرون بعض العزاء ويحسون بهذه الخلجة الروحية التي تصل بين القلوب الكسيرة بالرغم من تباين المكان والزمان ، فيذكرون ان كاتب هذه السطور هو الذي تألم ، وان اليد التي ادارت قلم الكاتب هي التي اشتعلت عروقها فجرى دمها فائراً حميماً وغدا كل مفصل منها جحيما .

وانا حين اطل من بعض الفصول على الروحانيات استهدف نفع الاشقياء ضحايا الألم امثالي . ولا تسل عن غبطتي الروحية في هذه الهنيهة التي انتقل فيها بالخيال ، في شبه رؤيا ، الى المستشفيات ومنازل الفقراء والمتألمين الذين نبذتهم الحياة عن مائدتها السمحاء نبذ اليتامى اللطماء ، فتجمعت في وجوههم آي البؤس تجمّع الالفاظ في معجم ، فأرى هذه المذكرات بين ايدي المساكين والضعفاء وكأني بهم يقولون ما معناه : ربنا ، لك الحمد على المكروه ، فلقد تردّى قبلنا في لجة الشقاء رجل ، ونحن لم نزل على الشاطىء لم تبتلّ اقدامنا بعد .

واتمنى الاّ يقع هذا الكتاب في يد غني بطر ، او لئيم اشر او حديث نعمة رين على بصيرته ، او موظف سيّج على قلبه

بالبذخ والكبرياء . فكل هؤلاء يتّخذون من آلامي هزؤاً او موضوع تندّر لانهم ينظرون الى الاشقياء من علٍ ، كأن بينهم وبين المساكين مثل الهاوية التي بين أليعازر والغني (لوقا : الفصل ١٦ ، العدد ١٩) .

اللهم اعصم هذه الصفحات المطهرة بالعذاب الذي افرغت علي من الهوان في الايادي الزهمة ، وصُن حروفها من المرور في الخناجر الفواجر ، والعبور في خواطر موتى الشعور والضمائر ، فلا يقرأها حديث نعمة او ثريّ حرب ، لئلا يقع في يدي او يد اولادي من بعدي فلس اختلسه لئيم احتكر من كف فقير محتضَر ثمناً لدواء او لرغيف ، اي فلس اكتنفه الحرام من جهات ثلاث كما اكتنف التحريم خمرة ابي نؤاس ، اذ اقسم الاّ يشربها ما لم تكن مشتراة بثمن خنزير مسروق .

والكلام الذي اتناول به اشباه الآدميين في هذه المذكرات ، لا يجري على اطلاقه – ولكل قاعدة شواذ – فقد تجد بين الذين انفصلوا عن الانسانية بمال وافر او جهل مطبق او قلب مفقود ، افراداً تخلّفت عن القطعان فظلت في صعيد الانسانية .

بقي علي ان اورد في باب التمني الاّ تقع هذه الاسطر – واسطر سواي من الادباء الذي يفوقونني فكراً وفناً ونضارة قلم – في يد جلف يتحامل على نفسه ليشتري كتاباً او يقرأ فصلاً

في مجلة ، فيعاني من الاكراه والتردد ما يعانيه الوحيد المخنث عند
تجرع دواء مر . وليس ارخص من النشرات الادبية الا الخرق
البالية او الاحذية العتيقة التي يشتريها الرعاع لتباع في سوق
الدلالة . وفي امثال العامة : ارخص من الفجل . ولو قالوا
ارخص من الكتب لأصابوا الحقيقة في اكثر من كبدها ، في
قلبها .

وتكسد الكتب في الشرق العربي حتى يعلوها الغبار ،
وبينها روائع برغسون وروبس وكاريل وغوته وشكسبير ،
واغلاها سعراً لا يعادل ثمن تذكرتين للسينما او ثلاث علب تبغ
او جوربين وتنظيف حذاء ، فعجباً لقوم يصرفون عنايتهم الى
أرجلهم ويتركون رؤوسهم الا ما نبت عليها من الشعر يجعّدونه
زينة تصدّع في كل نسمة ريح .

فيا ايها القارىء . انا اشكرك لانك تقرأ في زمن أربى فيه عدد
أميي الفكر على أميي الحرف ، وأطري شجاعتك لانك تسلخ من وقتك
ساعة لتضيف الى وعيك وعياً والى معرفتك علما — قد يكون
علمك بجهل الكاتب ، ولكنه علم على كل حال —. في هذا
الزمن المحموم ، وقد اصبح معظم اهله آلات تفر من التفكير ،
حتى تهرأت وصدئت في حمأة طلقها الشعاع الطهور والنسيم
العلوي ، فاستترت بالعلّيق الاخضر ، وغدت مسرحاً للافاعي ،
وملعباً للصلال . وقد لبست كل حية اسماً طريفاً ، فدعي النفاق

مرونة ، والغدر مهارة ، والفجور حباً ، والمقامرة حظاً ،
والكبرياء شمماً ، والفطرسة نبلاً ، والبذاءة ظرفاً ، والظلم حزماً ،
والسرقة تجارة الى آخر هذا المعجم الذي يخيف الضواري لو
صُوّر رموزاً .

سلام عليك ايها القارىء ، وهات يدك لاهنئك ، فان
الدرب الذي سلكت يباعدك عن القطيع الجرب . ولا تيأس
لوعورة الطريق ومشقة التصعيد وقلة الرفقاء فانك عما قليل تبلغ
الذروة وتلقي نظرة اشفاق على السوائم المقتتلة على المرعى
والايلاد ، على الماشية الغريقة في مزابلها ، على البهائم الدائبة
على النطاح حتى تتردى في هاوية . حينئذ تستشعر نعمة الله
عليك ، اذ اعطاك الحكمة فجعلك بها انساناً جديراً بالملاء الأعلى.

بولس سلامة

بيروت ١٢ شباط سنة ١٩٥٠

* مقدمة في الألم *

هذه مقدمة قد تراها طويلة مملة ، أو تحسبها من قبيل لزوم ما لا يلزم وقد تقول في نفسك ما بال هذا الجريح يتفلسف وكان الاجدر به أن يطلق اليراع في صلب الموضوع ، اذ يغطّ القلم في الجراح فتخرج الفكرة طبيعية حامية نابضة بالحياة ، وتكون أدنى الى القلب وأقرب الى الفهم ، تلك شيمة أصحاب المذكرات الذين يرسمون حياتهم في صفحات ، ويجسّدون شعورهم في كلام .

ولو اني استجبت نداء الانانية لوافقتك على هذا الرأي الفطير ، ولكني أبيت أن أشغلك برحلة سوداء من حياة رجل يذهب في الذاهبين ، فآثرت أن ادير البحث على الخاص والعام ، والفردية والاطلاق فتخرج من هذا الكتاب وفي نفسك عبرة لمعتبر ، وعزاء لأسيان ، وتطلّع الى مشاكل الحياة ومعاني الحياة .

واذا انا وطّأت للألم بهذه المقدمة فقد بقيت في صميم الموضوع ، غير أني أشرفت عليه من ربرب فسيح القمة ، لأمدّ البصر في شعابه فأتعرّف الى الخطوط الكبرى وانقلها الى ذهنك

معرضاً عن التعاريج الضيقة ، والمسالك الوعرة رفقاً بنفسي وضناً بوقتك الغالي .

ومشكلة الألم من أمهات المشاكل الكونية ، بل هي مشكلة الانسان الكبرى أو لا تراه يستقبل الوجود بأنة ويودعه بأنة ؟ قال ديكارت أنا افكر إذن فانا موجود .

ولو قال أنا أتألم فاذن أنا موجود ، أو أنا موجود فاذن أنا اتألم ، لكان قوله أنفى للشك وأعلق باليقين .

ومعلوم ان مشكلة الألم ملازمة لوالدتها مشكلة الشر لزوم غصن الصفصاف الباكي لأمه الشجرة ، وقد شغلت مشكلة الشر عقول اساطين الفكر وأعلام المعرفة منذ فجر التأريخ ، وستظل كذلك حتى يتلاشى آخر دماغ في آخر جمجمة على وجه الأرض . وكانت هذه المعضلة سبباً في إلحاد بعضهم وكفرهم بالله عز وجلّ . وبولغ في الأمر فاتّهم الفلاسفة جميعاً بالزندقة والالحاد . ولقيت هذه التهمة حقلاً خصباً في أذهان الخاصة وفراغاً رحباً في صدور العوام ، وفعلت الشهوات فعلها في ترجيح الكفة ، فطغت المادة على النفوس ، ونقم الناقمون على مبدع الكون لما في الكون من ألم وشر مستطير . لذلك ارى لزاماً علي ان اقول في هذه المقدمة كلمتين : واحدة في الألم وواحدة في الله غير مقتصر في بحث مشكاة الله على علاقتها بالشر فقط بل سألم إلماماً سريعاً بمعتقد معظم الفلاسفة واجماعهم على الاعتقاد

بخالق وان اختلفوا في الكيفية وتنازعوا في التفاصيل . وانما افعل ذلك بسببين. اولهما دفع الالتباس العالق في أذهان العامة من ان نوابغ البشر لا يؤمنون بالله ثانيهما توجيه القراء الى انه تعالى هو الركن الأوحد لهذا الكون . فاذا استطعت أنا الخاطىء ان أهيب بنعجة واحدة من النعاج الضالة فارد‌ّها الى حضن راعيها فلقد كفّرت عن سيئاتي ولقيت ثواب ألمي

حينئذ لا يكون مدار هذا الكتاب رجلاً تألم بل رجل يحب ان ينتفع الناس بآلامه متطلعين معه الى دنيا الحق

الله! ها انا ابدأ من حيث يجب ان انتهي. فتح الانسان بصره على هذا الكون فقادته الغريزة المعصومة – التي تقود اليمامة الى بناء عشها كأتقن ما ينسج الحائك ، والنحلة الى دنج خلاياها كأدق ما يحذق المهندس – الى ان وراء المحسوس لغزاً عجيباً . وكان العقل يومذاك طفلاً ، ولكن هذا الطفل نفسه أحسّ أن له اباً فراح يبحث عنه منكبّاً عن طريق الغريزة المعبّد الموطّأ الاكناف ، آخذاً في الشعاب الملتوية ، تارة يغوص في الوحل وطوراً ينهض ثم تزّل به القدم كرّة اخرى . ودارت دورات في الزمن فأيفع الغلام وطرّ شاربه وكاد يجد أباه لولا أنه محجوب بغمامة كثيفة لا ينفذ منها البصر . فاتضّع العقل الدعّي واستنجد بالوجدان الذي لا يخيّب آملاً واختلج القلب خلجة كان فيها اللقاء

ولد الطفل في اليونان ، بعد أن تمخّضت به فينيقيا ومصر وبابل وفارس وشواطيء الكنج . اليونان ذلك البلد الذي أمحلت تربته ، وأخصبت رؤوس رجاله . فهذا طاليس (Thalès) يرى في المادة روحاً ويحسب الكون مليئاً بالآلهة ويزعم أن من الماء كل شيء حي . ويتابعه على هذا الرأي انكزيمن (Anaximène) وديوجين الأيولوني مستبدلين الماء بالهواء الذي يغمر كل شيء حتى الروح . أما هراكليت فرأى النار – وهي أخف من الهواء وألطف – أساً للكون حياً دائماً عاقلاً يخلق بمقدار ويميت بمقدار ويظل أبداً في حركة . عنه يصدر كل شيء واليه مرجع كل شيء .

وقال أنكسغوراس بأزلية الكون وبمنظم لهذا الكون الأزلي سماه العقل .

ودرج العقل وخطا الخطوة الاولى فقال كزينوفان بأن الله واحد مختلف عن الآدميين شكلاً وعقلاً . بكليته يرى ويفكر ويسمع . ويعمل بدون عناء ولا نصب بل بمجرد الفكر وله على كل شيء سلطان . وتلت هذه الخطوة ثانية أكبر منها فقال (برميند) بالكائن الكامل الأسمى .

وعقبتها خطوة عظمى هي خطوة أفلاطون العظيم ، صاحب العقل النيّر ، والقلم المشرق الهائم بالجمال العلوي والصور الأزلية ،

وقد رأى الله صورة الصور ومبعث كل جمال . وعرفه بانه الواحد الخير ، وانطلق في التأمل فوضع أول حجر في هيكل التصوف اليوناني

وقام التلميذ الذي فاق أستاذه ، عنيت به ارسطو فعرّف الله بأنه فكرة الفكر وتمام الكائن الأزلي الأكمل الدائم الغبطة ومصدر كل غبطة وحياة . ورآه المحرك الاول الواجب الوجود ، اليه تتوق الكائنات وفي هذا الشوق سعادتها .

وعرّفه الرواقيون بأنه روح العالم المنبثق من مجموع الكائنات .

وحدده (فيلون) بالكائن الذي الذي لا يعرف بذاته بل بأعمال يديه . وقد انكر عليه الخلق المباشر فنسبه الى كلمته (Logos) الوسيط بينه وبين العالم تنزيها له عن التلوث بالمادة . أما (افلوطين) فعرّفه بأنه الاوحد والمبدأ الأسمى الذي لا يماثله شيء مما نعرف ونرى ، فهو الكل لأنه مصدر كل شي ، غير قابل للصيرورة لانه منتهى الكمال ومرجع الكائنات إذ أن هذا العالم المحسوس لا يشبع الانسان فلا غبطة له ألا بالعود الى وطنه . ولا راحة للنفس الا بحنينها للينبوع ، وهذا هو الاتحاد بالله والحب الرفيع المجنّح ، وكل حب سواه حب لأشباح زائلة .

ولا أنقل شيئاً من آيات بولس الاناء المصطفى ، ولا من

لآليء اغوسطينوس ، هذا الكوكب المشع من ارض السودان ، ولا من روائع توما الاكويني شمس المدارس ومنارة القرون الوسطى ، لئلا يرد علي بأن هؤلاء نظروا الى الله من خلال نفوسهم القدسيه لا من خلال عقولهم . ولكنهم في الحقيقة رأوه بعقولهم وقلوبهم المستنيرة بالروح القدس فاوضحت فلسفتهم ما قبلها وألهمت ما بعدها . حتى أن خصومهم يستضيئون بهذه الكواكب نفسها عندما ينزلون الى ساحة النضال .

ولست ترى واحداً من مفكري العصور الحديثة ، الجديرين بهذا اللقب ، الاّ ماراً بأحد هؤلاء الاقطاب الثلاثة سواء أكان حليفاً أم خصماً عنيفاً ، وليسوا جسوراً يعبر عليها العابر بل واحات يلوذ بها المسافر . وما قصّر المفكرون العرب في الاتجاه الى علة العلل بعقولهم وقلوبهم . فها هو الامام الاعظم علي بن ابي طالب . — الذي يعنيه ابن سينا عندما يقول : قال رأس الحكماء — . وقد ملأ الله عقل علي وقلبه ولسانه حتى لا تكاد تخلو خطبة واحدة من خطبه المعجزة من ذكر الله . وانا اذ اقول هذا لا انظر اليه من جهة انه قديس الاسلام بل من جهة تفكيره العميق ، وفيه مزاج من عقل سديد ، وقلب شاعر ، ووجدان مشرق ، كل ذلك قبل ان تعبر فلسفة اليونان شاطيء دجلة في عصر الخليفة عبد الله المأمون

وها هم أعلام الفكر العربي يرفعون لواء الايمان بالله فيتداولونه ويستمسكون به في مهبّ العواصف حتى تفيء اليه

اوروبا ، ويرفّ على جامعاتها زمناً غير يسير .

وها هو الفارابي يرى الله السبب الاول للموجودات والوجود المحض والعقل المحض ، والجمال والخير المحض ، والموجود الاول الواجب الوجود البريء وحده من جميع انحاء النقص ، والعقل الاول المحض . العقل والعاقل والمعقول الاول بالفعل على نهاية الكمال . يحب الكمال وهو الأكمل ، والجمال وهو الأجمل ، فيعقل نفسه ويحب ذاته فهو العاشق الأول والمعشوق الاول . عن وجوده يفيض الوجود والى الاتصال به تحنّ الكائنات . هو إله الوحي وآله ارسطو وافلاطون وافلوطين يترفع عن ادراك الجزئيات بنفسه مباشرةً .

وترى أعمى المعرة الحائر المتشائم ، يثبت غير متردد ان للعالم إلهاً قديراً حكيماً لا يعجزه بعث لنفس ، ولا حشر لأجساد ، ولا خلق أشباح ضياء من غير لحم ولا دم . هو المحرك الاول الذي ذكره الفلاسفة . تخضع له الكائنات ، ذكورها عبيد له والمؤنثات إماء ما عابه في قول ذلك الحكماء

اما الشيخ الرئيس ابن سينا فقد جارى الفارابي في رأيه ، فسمّى الله واجب الوجود بنفسه ، والمحرك الأول والعاقل والعقل والمعقول بالفعل ؛ والكامل الأكمل ؛ والواحد البسيط غير المتجسم أصلًا . الخير المحض والجمال المحض ، عنه تفيض الموجودات وتحنّ الى الرجوع اليه بعد تفلتها

من قيود المادة كما علّم أفلوطين . لكنه كإله الفارابي لا يدرك الجزئيات مباشرة بنفسه .

اما اخوان الصفاء فقد استدلوا على وجود الصانع الاول من اتقان الصنعة وجمال التناسق في الكون فالله صانع حكيم . فطر البشر على الشعور الداخلي بضرورة وجوده وإن تفاوتوا في المقدرة على ادراكه لكماله . يرى في كل موجود ولا يمازج موجوداً فهو كالواحد في كل عدد . عقل مجرد يدرك نفسه بالفعل فتفيض عنه الكائنات كما يفيض النور من الشمس وتحن الى الرجوع اليه بعد تحررها من المادة .

ولا يختلف إله الصوفيين عن إله الفلاسفة الانبثاقيين الا انه محبة وجمال محض . يتجلى لمحبيه لان الكائنات انبثقت منه ولان لها حقاً في العودة اليه ، فكأن الصوفيين نزلوا درجات السلم ثم صعدوا فكانت الوحدة المطلقة في هذه الحياة وقتية في نظر أصحاب التجلي وثابتة في نظر الحلوليين . واجتاز الغزالي ثلاث مراحل في حياته فكان رجل دين وتقليد ففيلسوفاً فصوفياً . وفي مراحله الثلاث ذكر الله : إله المؤمنين بالوحي الخالق الكلي الكمال ، فاله الفلاسفة الذي عجز هؤلاء عن ادراك حقيقته وجعلوا لقدرته حداً فاخطأوا ، ثم إله الصوفيين مصدر الحب والكمال والجمال والوجود وان النفس قبس منه تشعر بوجوده .

وجارى ابن طفيل الفلاسفة الانبثاقيين في آرائهم فلم يختلف

رأيه عما ذكره الفارابي وابن سينا وامثالهما الا ان له في التعبير عن فكره اسلوبا رمزياً مؤداه ان الله وحدة مطلقة بريئة من المادة .

ويثبت ابن رشد وجود الله بدليل العناية والاختراع وبدليل الحركة والضرورة المستمرة . ويسميه مع ارسطو المحرك الاول والمنظم الاول لدقائق الوجود والقديم بـلا علة ، مصدر القوة والفعل معاً . وينقد الفارابي وابن سينا وامثالهما لعجزهم عن اثبات هذا الصانع العظيم ، ولتلهيهم بفكرة الواجب والممكن وعلة العلل والانبثاقات .

ولنعد الى الغرب كرة أخرى مسايرين العصور ، فهذا ديكارت يرى انه في غنى عن البرهنة على وجوده تعالى لانـه بديهي . ولكنه عندما يحاول البرهنة يسأل الله نفسه أن يعصم العقل من وسوسة الشيطان الذي يضل العقل . ويرى في العناية نظامـاً أسمى تنطوي تحته كل الانظمة التي تسود الكون ، وفي محبة الله الهداية الوحيدة للانسان .

ويراه بسكال واجب الوجود أزليا غير متنـاه ، فمن غمرتـه النعمة يكفيه أن ينظر الى الطبيعة ليرى الله متجليا فيها .

ويراه ليبنتز العلة الأولى التي يجب ان يقف عندها العقل من جهة ، وسبب النظام والانسجام في الكائنات من جهة اخرى .

ويعدّ هذا الفيلسوف في طليعة المتفائلين القائلين بأن هذا العـالم – على ما فيه من شر – هو افضل العوالم الممكنـة الوجود .
وسكر (سبينوزا) بالله سكرة أضلته السبيل فاغرق الكون كله في الله ونادى بالحلولية . ولا تحسبنّ فولتير نفسه غير مؤمن بوجود الخالق ، يدلك على ذلـك قوله في بيتيـه المشهورين :
« يتعذر علي أن افكر بان هذه الساعة وجدت بدون ساعـاتي »

وكذلك القول في روسو ، ولا أحسبني مغالياً اذا قلت ان روسو كان بالرغم من ضلاله جد مؤمن حتى لتحسب الدين متغلغلا في كل جارحة من جوارحه . أما (كنت) الفيلسوف الجبار فبالرغم من انكاره على العقل ادراك الله عن طريق (الميتـافيزيقيا) فقد وجده عن طريق الاخلاقيات اذ لم يرَ من يكفل ثواب الخير إلا الله . وبالرغم من الصراع العنيف بين (كنت) الفيلسوف (وكنت) الانسان فانك تجد الايمان يلتمع بين السطور ، اذا جلوت الغموض وتبينت ما وراءها .

وبالرغم من ضلالة أتباع (كنت) ، من فيخت الى شلنغ الى هيجل الذي تزلّق الى الحلولية ، فلقـد كانوا على طريقتهم مؤمنين

ويأتي (مان دى بيران) فيرى الله ضرورة من ضرورات العقل والقلب فيكون موقظاً للروحانيـة ورأساً لهذه القافلة من

الروحانيين التي تنتهي في فرنسا بهنري برغسون ، المدرك الايمان
عن طريق الوجدان ، والمدوّن في الكلام على المتصوفين ،
أمجد صفحات خطها يراع على ورق ، ماثلتها صفحات طلعت
من ألمانيا على قلم مكس شلر ، وقابلتها روائع روسية من
قلم بردايف .

لقد عرضت عليك في هذه الكلمات الخاطفة أسماء بعض
الفلاسفة والمفكرين من جهة اعتقادهم بالله فرصفت في هذه الزاوية
الصغيرة بعض النماذج ، لعلي ازيل من أذهان العامة وأنصاف
المتعلمين هذا الوهم العالق في نفوسهم من جهة إلحاد الفلاسفة .
إن الفلاسفة لمؤمنون ، ولا فضل لهم ولا منة . وانه تعالى غني
عن ايمانهم ودفاعهم عنه .

ان قطرة الماء تدل على وجود البحر ، ولكنها تبدي حقارتها
اذا انبرت للدفاع عن البحر ، كريشة النسر تدل على وجوده
ثم تمنّ عليه بهذا البرهان .

ان فريدريك نيتشه – وهو في عرف الناس – القمة في
الالحاد لم – يكن في الحقيقة إلا مشغوفاً بالله ، ولكنه كما يقول
سرتيلنج آدم طرد نفسه من الفردوس ، وصار كلما ابتعد عنه
يزداد شقاء ، ولما جاوز الغاية في الشقاء ادّعى الآلوهية وكان
ذلك اليوم آخر عهده بالعقل .

* مشكلة الألم *

في جملة النواميس الطبيعية ردّ الفعل . فالاغراق في الضحك
مثلاً يسيل الدموع ، وكذلك الاغراق في التفاؤل يثير المبالغة
في التشاؤم

زعم المتفائلون ان هذا العالم على ما فيه من شر وصفحات
سود ، هو أفضل العوالم الممكنة ، فليس في الامكان أحسن مما
كان ، ولا غرو أن ينبت بجانب القمح الزؤان . وقالوا إن
الشر ليس ايجابياً ، ولكنه نقص في الخير كما ان العمى نقص
في النظر ، وقالوا انه قد ينجم الخير عن الشر باذن الله المحيط
بالعلل والغايات . فهو سبحانه يعلم ما لا نعلم . وقد يكون
الألم الذي يعتبره الناس شراً منبتاً للخير فلولاه لما اهتدى الطبيب
الى مكمن الداء فأستأصله . ولولا الشعور بالبرد لما ابتدع
الانسان الكساء . ولولا التعب لما أنشأ المراكب والطائرات
تشق الاجواء ، فضلا عن كون الألم مطهر النفوس وشكيمة
الحيوان الكامن في الانسان ، ترده عن الجموح والبطر .

أما حسبان الموت شراً فخطأ جسيم لانه النتيجة الطبيعية
الملازمة لكل مركب ، فضلا عن كونه طريق الخلود . ويرى

المتشائمون أن الحياة كلها موت بطيء . فكل ثانية تمر بنا تدنينا من الهاوية . فالماضي عبر ، وليس في الحاضر مستقر ، والمستقبل قلق منتظر . وما العيش إلا موت مؤجل نرجئه في كل لحظة . فندفع الجوع بالطعام ، والاختناق بالتنفس ، ولكن الأجل آتٍ بالرغم من التأجيل. والحياة على قصرها محفوفة بالمخاطر ، لا راحة فيها ولا هنـــاء حتى ليرغب الانسان في الموت والتخلص مـن خضم الشقاء . فاذا شذ واحد عن القاعدة فأقبلت عليه الدنيا وبسمت ، وتوفرت له الصحة والمال ، ومشى اليه الجاه العريض في موكب من المتع . وألقت اليه الرغبات قيادها يصرفها ساعة يشاء في ما يشاء ، وقع في ما هو أنكى وأشـد من الألم أي في الضجر . ومن هنا عمد الانسان الى قتل الوقت اي الاقتراب من الموت الذي يخشى ويدفع ، فابتدع ألعاب الورق وما ناظرها .

ويقول شو بنهور ، ما هذا معناه :

هُزْ أبعد المتحجرين في التفاؤل ، وطوّف به في المستشفيات الجراحية حيث يستشهد المرضى ، وقـدهُ الى غياهب السجون ، وساحات الوغى ، وأكواخ الشقاء ، فيرى اذ ذاك معنى قوله : إن هذا العالم أفضل العوالم الممكنة . ويستطرد شوبنهور فيقول إن دانتي أبدع في وصف الجحيم لانه نقلهـا عن هــذا العالم ، واخفق في تصور السماء لخلو الكون من عناصر يؤلف منها فردوسه

ولا يخلو قول زعيم المتشائين من بعض الحقيقة ، لولا مبالغته

وإلحاده ، فالألم واقع لا ريب فيه . ومن أنكره فقد أنكر الشمس في الظهيرة . وانه ليشتـد حتى يخرج بضحاياه عن الصحو فيوحي اليهم ما أوحى الي في هذا المقطع من قصيدتي (النسر) حيث تغنيت بالعدم فقلت :

وأجلّ من سلّ السيوف بقاؤها   مدفونة الشفرات في الأغمادِ
يا خالق الأفعى ومرهف نابهـا   للفتـــك بالآباء والأولاد
سبحان رأيك هل يعذب آدم   ويضل بين مفاوز ووهاد
ما الكون إلا البحر يقذف شرّه   متلهب الأمواج والازباد
في كل عصف منـه فحّة أرقم   ونواهش زرقاء غير بوادي
جيف على الآذّي تنشر نتنها   وتبث وهن اليأس في الصياد
يا طالب المرجان حظك عاثر   فالبحر مقـبرة وجوف فساد
يا خالق الانسان كيف خلقته   من معدن دنس ومن أحقـاد
أخلى من القفر الدويّ فؤاده   واذا يرق فرقة الجلاد
الوحل طبع أبيه فهو مغلف   بالطين بئس البرد في الأبراد
حسد وسفك دم ومـــين منـــافق
جاءت مـــع الدنيا على ميعـــاد

أستغفرك اللهم عني وعن شوبنهور

ونظراً الى هذه المرارة في الحيـاة المبللة بالدمـع فقد هجرهـــا القديسون والنساك ، وفروا الى البرية يقتاتون بالعشب ويلتحفون السماء . وقد كانت المسيحية التي شعارهـا الصليب اي التضحية

والألم سبّاقة الى ازدراء الحياة وتسميتها بوادي الدموع أو ليس
الدمع كالضحك من خصائص الانسان دون الحيوان ؟

أو ليس التصوف وهو إعراض عن الدنيا وفناء في ذات الله ،
أعلى قمم الفكر التي بلغها الانسان انه ودّع مهزلة الحياة بابتسامة
عريضة كما يودع الحلم المزعج والكابوس الخنّاق ؟ أيكون الانسان
معذباً بخطيئة آدم فيكون الأب هو الذي أكل الحصرم وأبناؤه
هم الذين يضرسون الى الأبد ؟

أيكون الألم هو الطريق الضيق الموصل الى الله ، ويكون
الانسان بين حفتيها كما كان المسيح بين اللصين ؟ مشكلة الشر
والألم عُقدة العُقد ، والألم يملأ معظم الحياة سواءٌ سميت الشر
نقصاً في الخير أو جعلته واقعاً ايجابيا ، سواءٌ استقبلته هازئاً
كما استقبله « ابيكتت » أو فررت منه كما فرّ (ارستيب)
وأحسب أن افضل الحلول لعقدة الألم هي اولاً فكرة الصبر
والاذعان « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من
الاموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين « سورة البقرة ١٥٥ »
ثانيا فكرة التضحية التي جعلتها المسيحية أساً للفداء . وتلك
التضحية التي أساسها الحب فيها من الغبطة ما يغطي الألم ، وهو
الموت الاصفر . أجل ان المحبة لتتمرد على الألم الأكبر ، على
الموت نفسه .

الحياة تغص بالألم وانما افراحها الحقيقية للمختارين والمختارون

قلة . كذلك كانوا وكذلك يبقون . ولم تستطع المدنية تخفيف
آلام البشر بل ضاعفتها بما فتحت من أبواب الترف فلم يبق إلا
التضحية . أجل ولكن الصبر لا يعني كبت البوذيين وتحجر
الرواقيين المتكبرين ، لانهم متى تجردوا من الشعور بالألم تجردوا
من الشعور بالحياة ، فاصبحوا أصناماً . ولكنها كبرياء لا تلبث
أن تنهار دفعة واحدة ، كالاناء الذي يتجمد فيه الماء ينشف
بعامل الضغط الثقيل . لقد صبر الشهداء وتألم المسيح فما تمالك
أن صرخ قبل موته :

ايها الآب ان كل شيء مستطاع عندك فأجز عني هذه الكأس
لكن ليس مشيئتي تكون بل مشيئتك

أجل مشيئة الله عزاء للنفوس الغريقة في الأسى ، بينما ترى
الناس في زفة قائمة ومهرجان مستطير .

أجل ان المسيح له المجد هو الذي علم البشر معنى الألم . أما
العهد القديم فلم ينظر الى أبعد من حدود التجارة ، إذ افتتح كل
يهودي سجلا للربح والخسارة ، فاذا رجحت كفة الخسارة وقف
الحمد والتسبيح ، وانطلقت الشفاه بالتذمر .

المسيح قضى على الكبرياء والتحجر وعلم البشرية الاستسلام
لمشيئة الله والصبر على البلوى ، بدون أن يميت هذه القلوب التي
في الصدور فصاح من على الصليب :

إلهي إلهي لماذا تركتني !

ذاك هو ألم ابن الانسان الذي يحمل معه الرحمة للضعفاء والمساكين ، ذاك هو ابن الانسان القائل من سقى أحد هؤلاء كأس ماء بارد باسمي فله الحياة الابدية .

هذا هو الألم المجنح يتعالى بالحب فيموت واحد بخطيئة الآخرين . ويغدو الألم منذ تلك الشهقة التي انشقّ لها حجاب الهيكل ، واستيقظ الوعي في ضمير الكون المعطّل ، منة لا عقوبة وافتقاداً وتطهيراً ولفت بصر شريد الى طريق سديد (١)

بالحب انتصر المسيح على الألم والموت ، وبالحب وحده استطاع الشهداء اجتراح العجائب ، اولئك الأبطال استقبلوا العذاب المبرّح باسمين ، لا على طريقة الرواقيين والبوذيين بل على طريقة المعلم يتقطر فرحه من خلال العبرات .

ألا ان مشكلة الألم التي تفرعت على مشكلة الشر وقد استعصى حلها على غطرسة العقل لتنحلّ وتذوب في هذه الدموع التي كان مثلها الأعلى دمعتان : واحدة في بستان الزيتون ، وواحدة على جبل الجلجلة

(١) فان الذي يحبه الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يتخذه (بولس الى العبرانيين فصل ١٢ من ٥ الى ١٢ .

* ربيع مودّع *

كنت قاضي تحقيق طرابلس ثانية المدن اللبنانية اتساعاً وعدد سكان ، وأولها جمال حدائق ومد نظر في نضرة البساتين المنتشرة على الشاطيء كأنها أواذيّ بحر أخضر يكاد يطفو على جاره الازرق ، لولا برزخ من رمل يفصل بينهما فلا يبغيان .

وربما كان لهذه المباهج ، وليدة الطبيعة السمحاء ، شأن في اخلاق الطرابلسيين ، فالطرابلسي ناعم اللهجة ، وافر الكياسة حتى لتجد الاكياس بين المجرمين (زبائن) دائرة التحقيق . فاذا قلت هذا في نفر من اشرارهم فلقد تركت للقارىء أن يخلع على كرامهم – وهم كثر – أشرف النعوت . ويعلم الله اني أسوقها شهادة للحق شأني في كل كلمة يجري بها قلمي في هذه المذكرات. وأسطع برهان على صواب ما قدمت أن الغريب ينسى غربته في ذلك البلد . وكنت بعد مرور سنوات ثلاث اي سنة ١٩٣٦ أحسبني واحداً من أهله اذ تتنازعني المناعم فلا أدري أيها أختار. فهنا مجلس علم وأدب يستظل الادواح في قمة مقهى (التل) ، وهناك حلقة سمر في (كازينو التويني) وهنالك سهرات فيها حديث عن الصيد وتأهب للتبكير الى مباسط (عكار) أو مشارف

حمص . فكأن الله سبحانه ، وهو العالم بغدي ، سمح أن اتزود من يومي فقيض لي أن اتلمظ الكأس ، علماً منه بأني مقبل على بيداء محرقة أطيب ما فيها حميم وغسلين .

تصرم شهر حزيران وأقبل تموز وفيه العطلة القضائية اي سبيل للراحة سحابة شهرين فاستأجرت بيتاً في حصرون الجميلة — منبت السماعنة — وفي نيتي أن أجعل لي ولأسرتي من ذلك الصيف نعيماً أرضياً فاتنقل بين السفوح التي تهدر فيها الينابيع ، والقنن الوردية أخوات الشمس وجاراتها ، وبين يدي بندقية سوداء ، او كتاب منير ، أو دفتر أبيض استودعه عرائس القوافي وخلجات الوعي التي تستغلق على سوى الشاعر بل تخفى على الشاعر نفسه إن هو لم يغلغل في الحس العميق حيث يتكشف له العالم الباطن عن دنيا تتيه فيها البصيرة ، ويفنى على أبعادها المدى .

تلك لذة الحلم وما أثقل الحياة لولا هذه الطائفة من الاحلام ، بل ما أثقلها لو لم تكن حلماً موصولاً بارادة البقاء ، الارادة التي تحول دون تلاشيها في هوة الموت .



* يوم اسود *

أرسلت عائلتي الى الجبل في ١٢ تموز على ان الحق بها في اليوم التالي . وأتيت دائرة التحقيق فوجدت فيها برقية مؤدها أن عراكاً نشب في أميون (الكوره) بين الأهالي ورجال الدرك في سراي الحكومة ، وقد أسفر الاصطدام عن سقوط بعضهم جرحى فوجب علي التحقيق في الجرم المشهود . وكان اليوم شديد الحر وافر الرطوبة في الساحل فركبت السيارة وقد تحدر مني العرق ، وبلغت السراي عند الظهيرة . فاتخذت مكتب الضابط مقراً لاستجواب المدعى عليهم والشهود ونظرت الى النافذة الزجاجية الموصدة فاطمأننت الى انقطاع مجرى الهواء ووليته ظهري غير عالم ان الهواء ينفذ الي من زجاج مكسور . وصرفني العمل والجو المكهرب بشظايا المعركة والدم المتجمد في أرض الغرفة عن الانتباه الى جسدي ، والى ذلك النسيم الرطيب المتسرب من شقوق الزجاج رفيقاً ليّناً : وطال مجلسي قرابة ثلاث ساعات عدت بعدها الى طرابلس في المساء شاعراً بضيق شدر عند التنفس وبوخزة أليمة في الجنب الايمن . واستشرت الطبيب فقال هوّن عليك انها حركة عصبية لا خوف منها على هذا الهيكل الجبار .

وكنت يومئذ في نحو الرابعة والثلاثين من العمر ، نضير الشباب فيّاض العافية ، صليب العضل ، مشبوب الفتوة . ولكن الضربة كانت أقوى من كل هذا .

بلغت حصرون مساء ١٤ تموز سنة ١٩٣٦ فانشرح صـــدري لمنظر البيت الصيفي الجديـــد ، فيه زوجتي وأطفالي الاربعـة . وكأن غرفة منامي كوة سماوية تطل على اوداء احداهـا وادي (قاديشا) وهو اجمل ثغر خطه الله بين شفاه الجبال .

وما أويت الى فراشي حتى أخذتني رعـــدة الحمى فانفض عني الغطاء ، وعبثاً حاولت ضبطه . ثم استشعرت الدفء في حرارة حرارة ذرّفت على الاربعين . وكان ليل عيد الحرية آخر عهدي بالعافية

وطلع الفجر على مريض يتـداوله ثلاثة أطباء فيقلبونه يمنــة ويسرة ، اذ يتقطع ألماً وسعالاً . وقر رأيهم بعد المحاورة عـلى تسمية ضيفي الجديد : ذات الجنب أو الجناب . ولزمت الفراش شهرين خلتهما جيلين ، غير عالم أنهما رذاذ يسبق الغيث الهاطل ، وطليعة تتقدم الجيش الخميس ، ونسيم بارد ينـــذر بالرياح الهوج والزمهرير .

نهضت من الوعكة متوهماً اني سأعود الى الصحة عما قليل . ولجأت الى ظلال الارز حتى انطوى بساط الصيف وبردت شمس

الخريف . والمت بي آلام ألزمتني سريري كرة أخرى فحسبهــا الاطباء من قبيل داء المفاصل ، فغمروني (بالسيلسيلات) ومشتقاتها شراباً وحقناً في العضل والوريد فذكرت أيام (الكلسيوم) بالخير الكثير .

والتمست نقلي الى زحله لجفاف هوائها فاتيتهـا في ٢٧ شبـاط سنة ١٩٣٧ ومكثت فيها زهـــاء سنتين والآلام تحز في جسمي حزّاً . وكنت بالرغم من ذلك اتحامل على نفسي وأحضر جلسات المحاكمة وارأس بعضها . وقلما كنت اغادر البيت الا الى عيادة طبيب . ومن سؤ حظ المريض أن يكون له في الاطباء جمهور من الاصدقاء اذ تختلف الآراء ويحار المريض بين دواء ودواء ، وهو بين تجريب ويأس وأمل . وقـد تجمع لديّ من العقـاقير وأصناف المرّكبات في تلك الآونة مـا يمـلأ صيدليـة صغيرة . وكان الالم ينمو وبدأت تصحبـه حرارة تتذبذب بين السابعـــة والثلاثين والنصف والثامنة والثلاثين . وأمعن الاطباء في الحدس والتخمين مترّجحين بين الشك واليقين ، وهنا بدأ المختبر والفحص بالأشعة والصور . ولو كانت هذه الصور شمسية لضاهت بعددهـا رسوم أكبر ممثلات (هوليود) وأبعدهن شهرة . ولم يبق مرض الا استعرضه الاطبـاء عدا المرض الواقع فكان مثلهم في الخبط مثل المصريين القدماء إذ ألّهوا كل مظـاهر الطبيعة عـــدا الله سبحانه . ولم يبق في لائحة تقويم الأمراض بعد هـــذا العرض

الطويل سوى الحمى المالطية فقال بها أحدهم . ولكن المختبر أجاب
بما أجاب به القائد التركي الذي وُجه لمحاربة مالطة فضلّ الطريق
ولم يبلغها . (مالطه يوق افندم) اي انه نفى وجودها .

وازدادت الآلام فأصبحت أمشي محدودباً مقوّس الظهر
مشدود النظر الى الارض . وكأني بالصعيد يقول لي ما معناه :
ايها الشاعر الذي طال ما حدّق الى النجوم يستطلع بهاءها ،
ويستوحي صفاءها ، ويفكر في ارتباطها بالزمان والمكان ،
والسرمدية التي تندّ عن الزمان ، أخفض الرأس فانك تراب والى
التراب تعود .

وكان أشد علي من وجعي قول بعضهم ممن يلقاني ماشياً
محدودباً (شَهّل) ، ومعناها استقم ، وقول بعضهم اني صحيح
ولكنه الوهم يفعل فعله وكل هذا مصداق للمثل القائل : الجمرة
لا تحرق الا موضعها

وعلى ذكر الجمرة ارتأى بعض الأطباء النطس أن مبعث
آلامي هو التهاب اللوزتين . وخشي أن يستأصلها فأصاب بالنزف .
فحرقها بالكهرباء مع أنفاسي في جلسات متكررة . وكانت نتيجة
هذا الرأي كنتيجة رأي المشير علي باقتلاع أضراسي ، قلعتها
وبقيت حيث كنت . وقال قائل عليك باطباء بيروت مدينة
العلم والنور ، فجئتها وأجمع أربعة من اطبائها المشاهير على أن

القضية هي قضية الزائدة المعوية وخالفهم واحد فقال ان الداء في
العظم وإن لم يظهره التصوير وكان هو المحقّ وهم المبطلون .
ويدلك هذا الأمر عند تقويم القيم على ان العبرة في الكيفية لا
في الكمية ، وأن رأي الاكثرية لا يزيد شيئاً في جوهر الحقيقة
فقد قامت القيامة على غاليله وكوبرنيك وباستور وكانت الحقيقة
بجانب هذه الأقلية .

قالوا الزائدة قلت اقطعوا هذه الزيادة التي أوقعتني في النقصان.

* المستشفى رقم ١ *

دخلت المستشفى رقم (١) وللمرة الاولى في حياتي ، دخلته مريضاً . فقد كنت أدخل هذه المؤسسات عائداً أو مستنطقاً محققاً في جناية . وكانت تلك الليلة المطربة في ذلك المضجع القلق فاتحة عهدي الجديد في عالم الجراحة .

ورنت الاجراس في الصبح الفتيق ، لا اجراس الكنائس داعية الى العبادة ، بل أجراس المرضى تستدعي الممرضات . فلم تعكر علي منامي ولم استفق لاني لم انم .

واجتزت الرواق الى غرفة العملية مشمئزاً من هذا الجو المشبّع برائحة (الايتر) (Ether) المخدر واليود والكحول المطهرة وما جرى مجراها . ودخلت الغرفة فوجدت صديقيّ الطبيبين يغسلان أيديهما ويتأهبان ، وهما آخذان في أحاديث عادية شركاني فيها ، وتلك طريقة تمشى عليها صديقي الدكتور ت. ر. لايناس المريض وتلافيا لما يقع في روعه من الرهبة لان الجو الصامت مدعاة للخوف .

ولا أخفي عليك ايها القارىء اني شعرت بقشعريرة الهلع

حين استلقيت على المشرحة أو المجرحة أو (الطاولة) او المسلخ (سمها كما تشاء) . وازداد خوفي عندما اخذت الممرضة تربط يديّ ورجليّ . وكنت يومئذٍ أخاف الوجع وأحب الحياة حبّاً مديداً كآمالي ، مزدهراً كأحلامي . أما اليوم فلن اتردد عن تكرير قول الجنرال غورو ، يوم اصيبت ذراعه بشظية في ساحة الوغى : أيها الجرّاح اقطع .

وغرز الطبيب إبرة المخدر الموضعي ، واقتطع الطبقات الثلاث وأخرج المصران وعقد الزائدة ليجتثها بالـ (Thermocautère) وهذه اللحظة هي آلم اللحظات في باب الزوائد . واراد الطبيب ان يشغلني عنها تخفيفاً عني فقال يا بولس ما تتمة هذا البيت :

ولما شربناها ودب دبيبها فصرخت : .
الى موطن الاسرار قلت لها قفي
(وانت وقّف قتلتني) .

وأخذني سعال شديد في اليوم التالي – بوصفي مدخّنا مزمنا – ولكن مالي اقف بك طويلاً على الساقية وسأقف بك عما قليل على سيف البحر . فعملية الزائدة أصبحت مبتذلة لا يصح الوقوف عليها كالألف لاتقبل الحركة .

وعدت الى زحله فهنأني الصحب بالسلامة ظناً منهم اني في دور النقه وكان في الحقيقة دور الخيبة

* المستشفى رقم ٢ *

واتجه الرأي هذه المرة الى القيام بفحوص عامة في مستشفى الجامعة الاميركية وهو في الحقيقة من أرقى المستشفيات ادارة وتنظيماً واكتمال عدة . والممرضات فيه أفضل الممرضات وأرقاهن وأعلمهن بنفسية المريض .

وعدنا الى التصوير مثنى وثلاث وعشار والى فحص الدم والخبائث والفضلات . وخرجنا بوزمة من التقارير ، مكتوبة بلغة شكسبير ، وكلها تشير ، وما أدراك الى مَ تشير ؟ الى حُمّى مالطه

وكنت قد سمعت ان لصاحب سر الليال والفارياق ، الشيخ أحمد فارس الشدياق كتاباً عنوانه : الواسطه في تأريخ مالطه فطلبته من مكتبة الجامعة وأخذت أتصفحه منتظراً استحضار اللقاح المالطي من الجرثومة نفسها (autovaccin) . ولكن عندما جد الجد طارت الجرثومة المالطية وقيل لي هذه المرة ايضاً (مالطه يوق افندم)

فأطبقت الكتاب وكدت اكذّب الشدياق وانكر وجود مالطة لولا خوفي من الانكليز .

وفحصني أحد الجراحين يومئذ فجزم بوجود دُمّل بجانب مكان الزائدة البائدة . فقلت اذن نستأصله حيث استأصلنا جارته اي في المستشفى رقم (١) لأن الانسان (على ولوعه بالجديد من الأزياء) يؤثر القديم الذي ألفه ولو كان (طاولة عملية)

وعدت الى المستشفى رقم (١) مصحوباً بكومة جديدة من التقارير والصور أضفنا اليها فحوصاً وتجارب أخرى . ومرّ شهر وبعض شهر ورأيت الأطباء في حيرة جديدة فاستدرجت أصغرهم (وكان ملازماً موقتاً في المستشفى) فعلمت ان السرطان في جملة الظنون ، وانهم به يفكرون ، فرأيت من الحكمة أن اتظاهر بالجهل . وقضيت ثلاثين ليلة وفي يقيني ان الذي في بطني ينمو . فتأمل بعد هذا كيف كانت تلك الليالي السعيدة . وكنت ألحّ على الطبيب بوجوب اجراء عملية بل أكرهته على اجرائها لا شجاعة مني بل تخلصاً من مرارة الانتظار لانه ليس أفظع من الموت إلا انتظاره . وعلوت المشرحة هذه المرة وانا أجرأ مني في المرة الأولى . وأعطيت المخدر العمومي من نوع (شُليخ) واستفقت فاستعلمت فرأيت مقدار (ليتر) من الصديد موضوعاً في اناء وقد بعث الطبيب بجزء منه الى المختبر لمعرفة الجرثومة فجاء الجواب بعد تلقيح ال (Cobay) أن لا جرثومة ظاهرة (مالطه يوق) ? !

وبقي الجرح مفتوحاً ولمّا يزل إلى حين كتابة هذه السطور

(سنة ١٩٥٠) ولن تلتقي شفتاه حتى تتلاقى علي حفّتا قبري .

وعدت الى العمل بعد ثلاثة أشهر وأخذ الصديد يجف ويتناقص تدريجياً حتى بلغ بضع نقاط بعد سبعة أشهر . وكنت أضمد الجرح كل يوم وما هو في الحقيقة بجرح ، ولكنها فوهة ناسور يبلغ عمقه اثنين وعشرين سنتمتراً . وظل الطب جاهلاً طبيعة هذا الناسور وسببه لان الصور لم تظهر في تلك الآونة اعتلالاً في العظم لا في الحرقفة (os iliaque) ولا في العمود الفقاري

ونقلت في صيف سنة ١٩٣٩ من زحله الى بعبدا رئيسا للغرفة الجزائية . قضيت الصيف في قريتي (بتدين اللقش) حيث عمدت الى المقويات من دواء وطعام ، وأكثرت من (الكلسيوم) و (الفيتامين) حتى غدوت بادناً نشيطاً . وهبطت بعبدا وباشرت عملي ، وكنت لا ازال اشعر ببعض الألم ، فاشار علي الطبيب بتصوير الجرح ليرى مبلغ التقدم . فأطعت وتلطف فرافقني الى عيادة الطبيب المصور وكان ذلك في ٩ ايلول سنة ١٩٣٩ . وقد مرّ على اعلان الحرب العالمية الثانية تسعة أيام . وها انا أخرج عن الموضوع لأعيدك اليه وانت اكثر احاطة به وإلماماً

▲▲

* قيمة الانسان *

وتحسب انك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

قائل هذا البيت – على الأرجح – هو الامام الأكبر ، مفخرة الشرق العربي علي بن ابي طالب .

أجل ان الانسان ذلك الكائن الذي يسعى على قدمين ، وينظر بعينين ، وقامته دون المترين ، ينطوي على العالم الأكبر . بل ما قيمة العالم الأكبر بدونه . ومن يستشعر بهاء الشمس ، وصفاء الرقيع الأزرق ، وبهجة الربيع الأخضر ، وعندلة البلابل المسبّحة بحمد باريها اذا خلا الكون من انسان .

الانسان ! ذلك اللغز العميق حاول فك الالغاز جميعاً إلا أحجيّة نفسه . وظل مئات السنين يطوّف حول حصون المعرفة فلم يجد المفتاح إلا يوم هبط عليه الوحي بهذه الآية : ايها الانسان اعرف نفسك . ولو كان ابن الأرض فقط لما كان لغزاً ، ولكن له مصدراً آخر يتعذر ادراكه على الحواس ، ويتيه فيه الظن فلا يدركه الا العقل مؤيداً بالقلب ، لذلك ترى الانسان ملتقى الأضداد ، فهو الضعيف الخوّار والشجاع الجبّار ، والكريم

الشفيق ، والجلف الصفيق . وهو الحيوان المحمول بالغريزة على التناسل والغذاء ، وهو العفيف السماوي التفكير . ومن هنا نشأ فيه الصراع الأبدي ، وهو أعنف المعارك لانه نضال في صميم الوجود ، بل هو ركن من أركان الوجود دائم بدوامه . ومن هنا اختلفت النظريات في الانسان . فمن قصر النظر على حيويته رآه أتم الحيوانات خلقاً ، وأوسعها حيلة وان قصّر عنها سرعة جري وقوة ذراع . ولكن من تطلع اليه ببصيرته رآه قطب الكون ونقطة الانطلاق لا شيئاً بين الاشياء ، ولا جزءاً من كل بل عالماً مستقلاً ، ينطق بلسان ويحب بجنان ، ورأى الكون كله من خلاله . كل ذلك لانه مفكر يتقمص روحاً مستمدة من خالقه المبدع ، من الله جل جلاله .

الانسان متفرد في الطبيعة لا يدانيه منها شيء ولا يشابهه شيء ولا يستبدل بشيء . فما هو بالمركّب ولا بالمضاف ولا بالفرد المماثل لسائر الأفراد ، لأنه شذوذ عن الطبيعة وخروج على نواميسها . فقد يتعذر عليك التمييز بين حمامتين بيضاوين ، أو بين فرسين أدهمين ، ولكنك لن تجد بين ملايين البشر رجلين هما هما . فان تشابها في الجسد اختلفا في الروح . ذاك ان الانسان كون قائم بجوهره بالرغم من التشابه الناجم عن الوراثة والبيئة ، والصفات الظاهرية الجامعة بين أبناء الاقليم الواحد . وبقدر نمو الشخصية في الانسان يتسع الفرق بينه وبين اقرانه ، وبقدر تلاشيها يتلاشى الفارق وتمّحي كمية الانسانية فيه ومن ثمة يتعذر

تحقيقها ، ويصبح فرداً في القطيع ، ويندمج في الجماعة ، فيكون له حياتان . أما الأولى فسطحية زائفة تساير المجتمع في ما يسمونه مدنية ، وهي طلاء خارجي وسراب مخادع وأصداف شبيهة بتلك التي يقذفها البحر فتلتمع على الشاطيء في الأصيل وليست من اللآلىء بشيء . ومن هذه الجهة سمي الانسان فرداً في الهيئة الاجتماعية ، أو عضواً لجسم على حين ان هذا الجسم عضو منه . وانما النظرة السطحية اليه أوهمت الناظر انه جزء من كل ، ولكنه في الحقيقة يحدد بداخله لأن حياته الداخلية هي اللباب ونقطة الانطلاق والخلق والاتجاه الى الآفاق العلى ، وتلك هي حياته الثانية الروحية التي تحلّه من قيود العبودية وتصله بالله منبع كل خير وتحرر .

وقد يكون المجتمع صديق الفرد ولكنه عدو الانسان ، ومدمّر الشخصية ، اذ بلاشيها فتتبخّر كمعين الماء الصافية ، تستحيل بخاراً لتندمج في البحر الملح حيث لا تعود تنقع غلّة ولا تبلّ لساناً .

باسم المجتمع يحقّر الانسان ويعامل معاملة الآلة المتحركة فيتألم. وتارة يسمى هذا المجتمع شيوعية ونازية وفاشستية وطوراً يدعى شعب الله الخاص . ألفاظ جوفاء وطنطنة وأوهام .

انما الانسان هو المتألم ، وليس المجتمع الا أنا وانت وهو . فاذا حذفت هذه الضمائر الثلاثة فقد حذفت الكون بأسره لان

الكون كله يتجلى بانسان يتوق ويغوص على أعماق نفسه ليتعالى ويلتحق بالقبس الالهي ، بالحق الذي يحلّه من أغلاله عملاً بقول الانجيل (تعرفون الحق والحق يحرركم)

الانسان كل في كل ، نفس وجسد يؤلفان وحدة صميمة لا انفصام بينهما . فاذا قام نضال فبين الروح والطبيعة ، لا بين النفس والجسد فكلاهما أصيل متداخل في الآخر . وانما العمل على إضعاف الجسم وملاشاته إضعاف للنفس وجناية عليها . بوهمية وبوذية ما أنزل الله بها من سلطان

وليس في غايات الجمال أجمل من وجه إنسان . ولا يتأتّى له ذلك من تناسب في التقاطيع ، او سماحة في السيماء ، أو من نبض الحياة في عينين ، ولكنها الروح المشعّة ، هذه الرفيقة الأمينة الغالية على الله تتجلى في وجه .

الانسان غاية في نفسه لا واسطة ولا جسر يعبر عليه المجتمع الى مآربه . وانما المجتمع يعبر على الفرد المركّب من لحم ودم ، المولود من أبٍ وأم ، وليس الانسان فرداً فقط بل فرد وروح . وهو بهذه الصفة وبما رُكب فيه من توق الى الخير يندّ عن الجماعة والوطن فيكون مواطناً في ملكوت الله (كما يقول برداييف في كتابه حرية وعبودية الانسان) ومصدراً للقيم ونقطة ارتكاز ينطلق منها المجتمع والبشرية والكون ، لا نقطة ماء

تتلاشى في هذا الخضم المثلث . بل ان الله تعالى مبدع الانسان لا يرتضيه ذليلاً وضيعاً ، ومن الخطل زعم الزاعمين بأنه خلق الانسان لتمجيده ، تعالى الله الغني الحميد عما يصفون . وانما خلقه منّة من لدنه وتكرماً وحباً ليرفعه اليه اذا أطاعه ولبّى النداء السماوي . كل هذا القول في الانسان لا يخوله أن يكون عنجهياً أنانياً فالأنانية والأثرة من شأن الجماعات والأحزاب والطوائف . ولكن الانسان الجدير بهذا اللقب ينفتح للمحبة والتضحية في سبيل الغير ، فلست غريباً عني ولست غريباً عنك بل أخوان متحدان اتحاداً صميماً لا صلة إنسان بفرد أو بموضوع بل صلة الذات بالذات . أما الفرد الاناني فعبد يجهل معنى التحرر ، فكيف يكون عالماً مستقلاً وقبساً من النور الالهي . فهو بالتضحية والمحبة يخرج عن الانعزالية ، ويعيش في المجتمع لا ليذوب فيه بل ليرقيه بما يخلع عليه من محبة ونور وعلم ، فلا يكون علةً عليه ولا آلة تحركها الاهواء ، ولكنه يعطيه من ثقافته ولا يضمحل في مدنيته . وبين المدنية والثقافة فرق عظيم ، فالمدنية آلات ومعامل وبوارج وطائرات ، وأزياء ودعارة ، ولهو واستمتاع بملذات وتسابق الى مال ، والثقافة تعمير أدمغة وتحضير قلوب ، وصقل أخلاق وتفتّح انفس وخلود . والخلود في طبيعة الانسان ، وما الموت إلا انتقال وفراق الدنيا الى ما هو ابقى منها وأنبل ، وانه شرط الخلود كما ان مغادرة اليابسة وعبور البحر شرط لبلوغ القارات الاخرى .

وانما منشأ الخوف هو الدوار الذي يلم بالمرء عند وقوفه على الشاطيء وارتعاده لمشاهدة الأواذيّ ، وتخوّفه من الغرق والوقوع في ظلمات اللجج بين انياب التنين . ولكن المرء يتحرّر من هذا الخوف اذا هو لبّى نداء الله وتهيأ للرحلة ، وشد الواح السفينة . وان الباريء الذي خلق البحر واحصى حيتانه ييسّر له بعد ذلك نسيما رفيقاً يدفع الشراع ، ويبسط ما تعالى من الآكام الزرق السوائل ، فيجعلها مهداً ليناً وبساطاً تتلألأ فيه الكواكب ، حتى يكاد المركب يتعثر بالبهاء ، وكأنه في ليلة زهراء يمّحي فيهـا الزمان لانها مقدمة للنعيم المقيم في ملكوت الله



* انسان اسرائيل وربّهُ *

بعد أن ألمت بقيمة الانسان مطلقاً إلمـاماً عابراً ، وبينت علاقته من هذه الجهة بالله تعالى ، أرى أن اتحدث اليك قليلاً عن قيمة الانسان وربه في نظر اسرائيل بوجه خـاص ، لأن اليهود أقدم الموحدين ولأن للدين علاقة وثيقة بالتقويم .

لم تزل الأمة اليهودية محتفظة بطابعها الخاص منعزلة عن سائر الشعوب بالرغم من وجودها بينهم ، فهي من هذه الجهـة كالبطّ يعيش في الماء ولا يبتلّ جناحه . وكان من المفترض في هذه الملـة أن تكون السبّاقة الى المثالية والكمال ، وبلوغ الذروة في الروحانية ولكنها لا تدين بسوى المادة ، شأنهـا في ذلك اليوم كشأنهـا بالأمس (حذوك النعل بالنعل) .

فلقد انتظرت بالأمس مسيحاً يوفّر لها الثروة والملذات ، ويمتّع اسرائيل بفردوس أرضي . ولشدّ ما كانت خيبتهـا عندما أتى يسوع يبشر بمملكة من غير هذا العالم ، ويأمر بالرفق والتواضع والمحبة ، وينطق في موعظة الجبل بأسمى كلام تلاقت عليه الشفاه منذ مولد الكلمة بل منذ كانت الكلمة في الممكنات .

ولم يحفظ اسرائيل من كل الأسفار المقدسة سوى العبارة التي وجهها الله لآدم حين طرده من الجنة : بعرق جبينك تأكل خبزك فتعلق اسرائيل بالخبز ونسي الله . وجاء (كارل ماركس) في العصور الأخيرة مبشراً بمسيح جديد هو الخبز ناسياً أن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . ومن سخرية الأقدار أن يكون هذا (الشعب المختار) قد سمي كذلك بسبب يسوع المنتظر ظهوره من بيت داود ، وأن يكون الداوديّون أسبق الناس الى التنكيل به . ومن أشد الأخطار على القيم الانسانية هذه العنصرية البغيضة التي تدوس الفرد في سبيل الشعب . ولقد كان اليهود أسبق الناس الى تأليه الشعب وتحقير الفرد وايجاد الهوة السحيقة بين الانسان والله الرحمن الرحيم ، فصوروه في التوراة إلهاً غضوباً يندم كما يندم الانسان ويحزن ويتحمّس ويتكبر حتى لا يمكن الانسان أن يواجه ملاكاً من ملائكته ويبقى قيد الحياة .

أما رب الانجيل فهو رب المحبة والرحمة ، وكذلك رب القرآن وهو الغفور الودود (سورة البروج ١٤) ان الله بالناس لرؤوف رحيم (سورة البقرة ١٤٣)

وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم وما انتم بمعجزين في الأرض ومـا لكم من دون الله من وليّ ولا نصير الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم ان ربك واسع المغفرة (سورة النجم ٣٢) وفي هذا المعنى يقول الدكتور بدوي « ان

فكرة اليهودية عن الله كانت من الارهاب بحيث لم تعط الصوفي اليهودي الثقة بنفسه ، بحيث يتطلع الى الاتحاد المطلق بالالوهية لأن إله اسرائيل إله جبار منتقم يرسل الصواعق والطوفان ، وبالنسبة الى هذا الاله تنتفي معاني الأنس والحب والقرب وما يطوف بها من معان هي وحدها التي تشجع المرء على الاقتراب من الحضرة بينما إله المسلمين رحمن رحيم ودود يحب المؤمنين ويحبونه ، الى آخر هذه الأوصاف التي تنطوي على مغريات الأنس به والقرب منه والحب له والشوق الى الاتحاد به بل والفناء فيه » . شطحات الصوفية صفحة ١٢ عبد الرحمن بدوي

وله من ثمة للاسرائيلي إلهان : أولهما الله الذي يكرمونه بالمقدار الذي يكرّم به أحد الأصنام في الصين لانه يجود على الصينيين بالأرز والسمك ، والثاني الشعب الاشعبي المطامع منذ كان في مصر من آلاف السنين حتى احتل فلسطين في القرن العشرين.

ومن الغريب أن تكون فكرة خلود الانسان قد نشأت بين الوثنيين من هنود ويونان ، لان اسرائيل لم يؤمن في البدء الا بخلود الله والشعب ، أي خلود الانسان بأولاده عن طريق التناسل . أما خلود النفس فلم يخطر لهم ببال الا بعد انتشار هذه العقيدة في الشعوب الآرية ، وبعد قيام الاهرام المصرية واتجاه الفكر العالمي الى مصير الانسان بعد الموت ، واستقرار فكرة العقاب والثواب . ولا يخفى ان الاعتقاد بوجود عالم آخر

يستقيم فيه العدل المطلق هو العزاء الاكبر بل الاوحد للانسان الذي يلقى في هذه الدنيا وادي الدموع من ضروب الالم والجور ما يلقى . ولكن اليهود أرادوا الدنيا العاجلة ولم يفكروا بالآجلة إلا مسايرة لجيرانهم فجاؤوا من هذه الناحية في الرعيل الاخير .

واذا كانت مملكة المسيح من غير هذا العالم فمملكة اليهود في هذا العالم . وما موجة المادية والكفر واحتضار القيم الروحية في هذا العصر إلا اثمرات لأغراس اسرائيلية ، أغراس بذرها اسرائيل ليستعجل الطيبات في هذه الدنيا ، ويستعيد الفردوس الارضي حيث لا ألم ولا دموع ، بالرغم من مشيئة الله الذي طرده منه وأبقى له مع الدمعة ابتسامة كما يبقى الزؤان بجانب القمح . فأباها اسرائيل إلا ابتسامة موصولة وأصبحت تلك الأغراس عليقاً وعوسجاً شائكاً ، ضفر منه الاكليل الاول لرأس المسيح ولم تزل الاكاليل الموزعة على الدنيا تدمي جباه العصور .

قالوا حين صلبوه فليكن دمه علينا وعلى أولادنا ، ولا يزال الدم دافقاً . لقد أرادوه ملكاً ذا أريكة وصولجان فولد في مذود . ولم يروا في حياته كلها يوماً محجّلاً إلا يوم أشبعهم من الخبز والسمك . جاءهم المسيح القائل انه الطريق والحق والحياة ، وما برحوا ينتظرون مسيحاً يقول لهم أنا الثروة والجاه والملذات

لقد جاء المسيح المظهر لقيمة الانسان يفتقد النعجة الواحدة ،

ويضنّ بالشعرة الواحدة تسقط من رأس إنسان ، ويقول للمرء بأنه أكرم على الله من عصافير كثيرة ، وما فتئوا ينتظرون مسيحاً يدوس الانسان في سبيل (شعب الله الخاص) .

قيمة الانسان في نظرهم عشرون من الفضة بيع بها يوسف وثلاثون بيع بها يسوع .

قيمة الانسان في توراتهم دون قيمة الحيوان . فهذا يفتاح الجلعادي يضحي بابنته كما يضحّى بكبش بسبب نذر مشؤوم . وهذا شمشون الذي يزعمون انه حل عليه روح الرب (تعالى الله عما يصفون) يقتل ثلاثين رجلاً ليسلبهم حللهم ويدفعها ثمناً لأحجية ، ويحرق الزرع والكروم من أجل زانية ثم يقتل ألفاً بفكّ حمار .

وهذا شاول يقطع أجاج ملك عماليق قطعاً فلا يكتفي بقتله على الطريقة المألوفة (صموئيل الاول ١٥) ثم يقتل خمسة وثمانين كاهنا ابرياء ويضرب مدينتهم بحد السيف الرجال والنساء والاطفال والرضعان والثيران والحمير والغنم (صموئيل الاول ٢٢) وذلك الملك الذي تلاه يزني بزوجة أخلص أتباعه ويقتله غدراً (صموئيل الثاني ١١) ثم يوصي هذا الملك ، وهو في ساعاته الاخيرة ، ابنه وخليفته على العرش بقتل فلان وفلان فانظر مبلغ هذا التسامح والعفو... في ارهب ساعات الحياة . ويطول بنا المجال اذا انصرفنا الى تعداد مظاهر القسوة والبطش والحيلة والغدر

الشائعة في معظم صفحات هذا التأريخ ، التي تكاد لا تلمح بينها صفحة تنبض بالرحمة ، لولا بعض خلجات أثارتها انسانيـة الوثنيين المعاصرين ، وصحف تلألأت تحت يراع إشعيا وإرميا ودانيـال وحزقيال . ولكن هذا النسيم البليل الذي عقب الجفاف والقحط كان مقدمـة للحـدث العظيم ، كالفجر الذي يغمر الجبـال باللجين الذائب ، فيستبشر الناظر بأن بصره المثقل بوقر الليل ، المتخبط في الحلك ، بحثاً عن الثريا او بنات نعش ، سيكتحل بأشعة الشمس

* اسرائيلي لا غشّ فيه *

وجه بوم ويوم مشؤوم

وكان طبيبي يعتمد مصورا يؤمن بعلمه ونفاذ بصره وبصيرتـه في القراءة والتأويل ، ولنسمّ هذا الطبيب المصور عزرائيل ، باعتباره من بني اسرائيل ، مجردين اللاحقة إيل هـذه المرة من معناهـا السامي الدالّ على الاله الرحيم لنطلقها على شيطان غير رجيم .

استلقيت على (الطاولة) وكان عـلى المصور قبل تصويب الأشعة ان يحقن الناسور بال (Lipiodol) وهو سائل مركب من اليود والزيت ، فملأ المحقنة التي تسع عشرين سنتيمتراً مكعبا ، وركز في طرفها وصلة معدنية (Ambou) مربعة الزوايا . وعلى هذه الوصلة ترتكز الابرة عادة ، ولكنها في مثل حالتي تستعمل بدون ابرة ، أي توضع الوصلة في فوهة الجرح ويضغط على المحقنة فيدخل السائل . ولسؤ حظي تولّى المصور نفسه هذا الحقن لان طبيبي دعي في تلك اللحظة الى مكالمة تلفونية . واستمرت (الهالو) في الغرفة المجاورة اكثر من ربع ساعة . وادخل المصور العـديم الفطنة الوصلة في فوهة الجرح فتدحرجت الى قعر الكهف العميق المتصل طرفه بالعمود الفقاري . وزاد في النكبـة دخول السائل

الزيبقي معها فسهل لها الانزلاق في التعاريج والمنعطفات بحكم نظام (الثقل) من جهة ، وبحكم الضغط من جهة اخرى . جرى كل ذلك ولم ادرك من هذه الجريمة المِهْنيّة شيئاً لان بصر المستلقي لا يقع الا على سقف الغرفة . ولم اكن اسمع في الغرفة المظلمة ألا ازيز المجرى الكهربائي وعبارات : تنفس اقطع نفس . شهد المصور الوصلة تسقط في الجرح ، وشهدها في الصور العديدة وسكت . وجريمة السكوت في هذه الحالة افظع من جريمة الخطأ الفاضح . فماذا كان ينتظر ذلك الجاني الاثيم ، ولا يستر جريمته إلا موتي مع جهل السبب ، أو ذوبان الحديد وهو لا يذوب ويتلاشى كما تلاشى ضميره السافل حتى امّحت من وجهه كل سيماء انسانية .

وان أعجب لشيء ، فلكرم هذا الاسرائيلي المسماح الذي أبى عليه سخاؤه ان يطالبني بثمن الحديدة ، أو أن يسترجعها بعد استخراجها باعتبارها وديعة الى حين في قرار أمين ، ولا سيما أن اسعار المعادن تعالت في مطلع الحرب ، وان امثاله من الأجلاف يجهلون الطرح والقسمة ولا يعرفون الا الجمع والضرب .

وقد تقاضاني يوضاس في اليوم التالي ثمن الصور كاملا غير منقوص ، وبشرني بأنه لم يرَ علة في العظم ولا في اللحم ، ولا عجب فلقد تعامى ذلك النظر السديد عن رؤية أي شيء حتى الحديد .

وعدت الى عملي في المحكمة أصرّف القضايا واحكم بين الناس بالحق ، غير عالم اني محكوم علي بالشقاء بما أحمل في جسدي من معدن سدّ مجرى الناسور . وما هي إلا ايام حتى تصاعدت الحمى وبدا الصديد يفور فوراناً ، تارة اصفر جامداً وتارة اخضر كثيفاً . ولزمت فراشي في اليوم الثامن والالم يتأكلني ويحز في كل جارحة من جوارحي ، وبدأ التسمم وبلغت الحرارة الواحدة والأربعين ، وكانت اية حركة في الغرفة تزيد في وجعي ولو انها طنين ذبابة .

نقلت الى المستشفى رقم ١ وألححت على الطبيب بفتح الجرح فقال لي مازحاً وما عسانا نجد فيه أنعثر على الجوهرة ؟ وكان للجوهرة قصة لا مجال لذكرها في هذا المقام . واجريت هذه العملية الثالثة بمخدر موضعي . وما راعني الا اصطدام المبضع بجسم صلب التقطه الطبيب بالملقط وصاح وعلى وجهه آثار الدهشة انظر ها هي الجوهرة .

فتأمل ايها القارىء ما هي قيمة حياة رجل في نظر صاحبنا الاسرائيلي ...

ولم اقم الدعوى على ذلك الجلف الذي ردّني الى قعر البحر بعد ان بلغت الميناء وكادت رجلي تطأ اليابسة .

فيا ايها الاسرائيلي الذي كان سببا في تسميري على سرير الألم

كما سمّر أجداده مسيحهم على الصليب ، اني صفحت عنك كما صفح المسيح عن صالبيه ، لان قطرة واحدة من دم ابن مريم تساوي في ميزان القيم اشد آلام البشر منذ اليوم حتى منقطـــع نفس الزمان .

رمل وجفصين

قد يدخل في روعك ايها القارىء – بحكم التجاور بين الرمل والجبس – اني في صدد البناء والتعمير وانه شذوذ عن الموضوع ، ولكني لم أبنِ في حياتي إلاّ بيوتاً من الشعر وقصائـد وملاحم وقصوراً من الأحلام في غير اسبانيا . ومواد تلك الأبنيـة مزاج من فكر وخيال ، وجرْس وايقاع ، فاذا داخل بعضها الرمل فقد لا تخلو من الزبد ، ولكنها على كل حال خالية من الجبس

رأى الطبيب أن يعلّق في رجلي اليمنى ثقلا يشدها فيشلّها عن الحركة لعل حالتي تتحسن بهذا النوع من الراحة الاكراهية. وأية راحة أشد عذاباً من تحمّل خمسة وعشرين كيلو معلقة في الرجل مدة خمسين يوماً . وكنت حين تقلبني الممرضـة من اليمين الى اليسار لاصلاح شأني ، ينقلب معي هذا (الثقّـــال) الملازم لزوم الخطيئة الاصلية لنسل آدم .

ولكن هذا الحمل المرهق كان أخف علي وأيسر من ثقل عوّادي وعبء أسئلتهم ومعظمها يدل على حماقة السائل . ولقد كنت مستنطقاً (بفتح الطاء) مدى ثلاث عشرة سنة ، أي انني دفعت

ضعفي رأس المال والفائدة المركّبة .

ورأى الطبيب ان الرمل لم يأتِ بالفائـــدة المرجوّة فلفّني بالجفصين مدة ثلاثة أشهر . وفتح في ذلك الدرع الحجري فجوة تمكنه من تضميد الجرح كل يوم . وكان الصديـد يطفو فيسيـل على الجفصين من داخل . ولا تسل – أجلك الله – عن العفونة والنتن .

كان الجفصين يلف البطن والظهر والفخذ حتى عقب الرجل ، وكثيراً ما كنت أسعل فيتكسر السعال على نفسه نظراً لضغط (الزنّار) الصخري البارد على بطني . فاذا كنت ايها القارىء رجلاً فسل احدى السيدات ان كانت تستطيع النوم ليلة واحدة في مشد من المطّاط اللين

وعدنا الى التصوير والتقدير لمعرفة سبب الصديد مسيئين الظن بالعظم وكان جواب المختبر سلبياً .

وقال قائل قد يكون مبعث الصديد لفافة او قطعـــة من (الشاش) نسيها الطبيب في احدى العمليات الثلاث . ونما في خاطري هذا الشك الضئيل قياساً على فعلة المصور النبيل ، وارث أمجاد اسرائيل ، فرجوت من صديقي الطبيب أن يشقّني باحثاً عن جوهرة أخرى فأبى فانتقلت الى المستشفى رقم ٣

* المستشفى رقم ٣ *

وكان يرئس قسم الجراحة يومئذ جراحيّ أجنبي نابه الصيت ، بعيد الشهرة ، وربما كان عيبه الوحيد انه يعبد الرب الثاني قبل الرب الأول . وفحصني الرجل فحصاً دقيقاً ودفعت أجرة العملية على أنها بحث عن جسم غريب . وَخُدّرت هذه المرة بالحقن في العمود الفقاري وشقني الجراحيّ وأدخل المقحطة الـ (Curette) حتى تجاوز المنطقة المخدرة البالغ عمقها اثنين وعشرين سنتيمتراً . فصرخت صرخة ألم ونبهته الى انه تجاوز طرف السرداب مقدار سنتيمترين ، وشهد لي بالذكاء وشهدت له بالمهارة ونقلت الى السرير بعد أن اقتطع جزءاً من اللحم الموبوء بقصد الفحص ، وأخذ شيئاً من الصديد لاختباره في الأرانب . وجاءني بعد أيام يقول بوجوب شق الفخذ ، وهوّن علي الأمر بأن أجرى لي هذه العملية في سريري بعد تخديري بالمورفين . ولكني في الحقيقة لم أتخدر بل انتشيت نشوة مثل التي تحدثها نهلة صغيرة من الخمر .

وذهب بهذه النشوة الاكراهية مبضعه الرهيف فصرخت حتى بحّت حنجرتي ، وأثنيت على شجاعة الطبيب وثبات يده بالرغم من صياحي ، وجهارة صوتي . واعتذرت فعذرني باسماً وغاب وبعد

دقائق خمس – وكنت لم أزل أتأوه – بعث الي ببيان يعيّن فيه اجرة هذا الشق المرتجل . وعاد بعد اسبوع زاعماً ان الجرح صغير لم يأت بفائدة فوسّعه هذه المرة ولقيت ما لقيت في المرة الاولى من الالم والصياح وتلقيت بيان الحساب ودمي لم يجمد بعد على المبضع . وقضيت في المستشفى خمسين يوماً وخرجت ببشرى مؤداها ان العلة في اللحم ، وانها من نوع الـ (Mycose) الذي يشفى باستعمال مشتقات اليود فاستعملته على انواعه وعلى اوسع نطاق ، وعلى غير جدوى .

❖

* دير القنزوح *

وصرت على فترة يأس ، وتطوّع بعض اصحابي فجاءني بطائفة الدجالين فاستقبلتهم وكنت حذراً منهم ومن علاجاتهم بالرغم من قول المثل : ان المريض يتعلق بحبال الهواء .

وأرشدني بعض اخواني الى طبيب حامل شهادة يضاف اليها معرفته بالطب العربي القديم الذي تلقاه عن والده . وكنا يومئذ في مطلع صيف ١٩٤٠ . واشار علي الطبيب أن نصطاف معاً لأكون على مقربة منه . وقد تعالت أجور المساكن في الجبل تلك السنة عقيب دخول ايطاليا في الحرب . وكنت مضطراً أن أختار المكان الذي يلائم الطبيب فاخترنا دير القنزوح الواقع مقابل غزير في سفح قرية الكفور . وهو دير هجره الرهبان من قبل سنة ولا أعلم من أين جاءته لفظة القنزوح وقد شيدت كنيستهُ على اسم القديس نوهرا ولعله (الجيوس) . ولا يزال سكان القرى المجاورة يقيمون له عيداً في ٢٢ تموز من كل سنة . وأمثال هذه الاعياد كانت كثيرة في لبنان وإن هي إلا صورة طبق الاصل عن أعياد باخوس وديونيسيوس ، اذ لا ترى فارقاً كبيراً بين عبدة الاوثان في اليونان وعبدة الاوثان في لبنان .

ولم يزل في معظم الارياف اللبنانية شأن كبير للأساطير الشبيهة بأساطير الاغريق . وقد زارني بعض جيران الدير وحدثوني حديثاً طويلاً عن الجنّيات وعرائس الماء . وأكد لي واحد منهم ان رجلاً من قريته يدعى لحوداً شغف باحداهن فاخذته الى غارها المسحور المزدحم بالفيروز والذهب والزمرد ، فرسم اشارة الصليب ذاهلاً فامحّت الجنّية الى غير رجعة . ولقب العاشق الخاسر منذ ذلك اليوم (بلحود الجنيّه)

وكان القرويون يملأون فراغ وقتي بزياراتهم فاسايرهم في الحديث ، وأدرس نفسية الفلاحين والرعاة واتعرف الى اسماء أبقارهم ومعيزهم . غير مستغرب شيئاً لاني قرويّ يعرف الارياف وشؤونها . وكثيراً ما تراهم يطلقون على حيواناتهم اسماء تخرجها عن الجنس وتكاد تدخلها في باب الاعلام . وحفظت بعضها وكنت اسائلهم عنها فيغتبطون . ولا بأس بأن اقص عليك نادرة تدحض حجة القائلين باحلال العاميّة محل الفصحى (١) فلقد سألت أحد الفلاحين ذات يوم عما فعل في النهار الغابر فاجابني (رحت اجيب جرّبان شفت الجثْلان ضربتو بالبندي والبغريني) .

ومعنى ذلك انه ذهب الى البرية يجمع الصعتر فشاهد الثعلب فرشقه بحجر صغير ثم رماه بحجر كبير . فاذا كانت هذه حال اللغة العامية في قرية لا تبعد عن بيروت أكثر من ثلاثين كيلومتراً

(١) بالرغم من احترامي وحبي لحامل لوائهم نسيبي الشاعر السماوي سعيد عقل

فكيف السبيل الى التفاهم بالعامية بين سائر الاقطـــار العربية .

قضينا شهراً ونصف الشهر في القنزوح وبذل الطبيب جهده في المعالجة ، وذلك بتوسيع الجرح مدخلًا فيه الفتائل يكبرّها يوماً فيوماً فألقى العذاب الشديد في هذه العملية المتواصلة ، ولكن ذلك لم يفض الى شيء . وكلفت وزارة العدلية لجنة من الاطباء فحصي وتقرير مصيري بعد انقطاعي عن العمل انقطاعاً تاماً يزيد على السنة . وكان في اللجنة مستشار الصحـة يومئذ وهو طبيب جراحيّ فرنسي . ومتى عرفت انه فرنسي علمت انه كان صاحب الأمر والنهي في ذلك العهد ، وان رأيه هو المقدّم ولو خاطئاً خصوصاً وهو جرّاح عسكري برتبة عقيد .

فحصني الرجل وهزّ رأسه قائـلًا : تبّـاً لهؤلاء الذين تولّـوا علاجك حتى اليوم (فلقد بحثوا عن الظهر في الساعة الرابعة عشرة) ان سبب الصديد دمّل في الكلى ، وكان عليهم أن يشقوك من الوراء لا من الأمام ، فساعدته في النقمة عـلى الجهلة وتمنيت لو عرفته في بدء مرضي . وتطوع لاجراء العملية في مستشفى الصنائع التابع لوزارة الصحة فأكبرت مروءته ودخلت المستشفى في اليوم نفسه

* المستشفى رقم ٤ *

أدخلت مستشفى الصنائع في أواسط آب سنـــة ١٩٤٠ وهو مؤسسة مجانية كسائر المؤسسات الحكومية . وكنت قـد ألفت المستشفيات التي يحتل فيها مرضى الدرجـة الأولى غرفة خاصـة فيعاملون كما يطيب لهم مقابل ما يدفعون ، ويكون المال الشفيع المشفّع الوافر الأعاجيب . واستشعرت كـآبة الفقر حين لمحت نزلاء المستشفى المجّاني ، وحمُلت الى غرفة رحبة في الدور الأعلى ، تحتوي أكثر من ثلاثين سريراً وليس فيهـا يومذاك سوى خمسة من المرضى . ووُضعت في سرير يضيق بالولد الصغير فكنت اذا بسطت يديّ قليلا سقطتـا في الهواء ، واذا حاولت بعض الحركة خشيت ان اسقط الى الأرض ، فلا منضدة بجانب السرير ، ولا جرس لاستدعاء الممرضة ، بل لمحت القاعة خالية من الممرضات فراعني هول الفاقة وأحسستها اشد من الموت

ليلٌ مع الاوباش

وانصرف أهلي وقد سمح لهم ان يزوروني مرتين في الاسبوع لا اكثر .

هبط الظلام وليس في الغرفة سوى ضؤ أشحّ من كف اللئيم الراضع . وسألت عن ممرضة الليل لأني مقعد ولي مطالب شتى

فقيل لي انتظر فانتظرت . وأردت ان اقطع هذه الوحشة المذيبة بمحادثة رفقائي . فسألت أحدهم عن اسمه فقال : راشد النحاس وكان الرجل ألثغ فحسبته يقول (النحّات) بدلاً من (النحاس) وأوقعني هذا التصحيف اللفظي في خطأ ، فتصورت رفيقي من أهل الفن الذين تنكّر لهم الدهر كما تنكر للعبقريين من قبل ومن بعد . وأخذت في تعزيته وضربت له الأمثال وحدثته عن زملائه نحّاتي اليونان والطليان ، وبينت له ما يلقاه الملهمون من البؤس والشقاء . وظل الرجل صامتاً صمت القبر فحسبت اني نكأت جراحه وذكرته بماضٍ سعيد ، وبآمال خضر طواها الزمن . ولك ان تتهمنى بجهل الفراسة بعد هذا ولكن لا تنس ان الضؤ كان شحيحاً وبيني وبين الرجل مسافة خمسة أمتار

ويذكرني هذا الحادث بنادرة مؤداها أن أميراً غضب على شاعره فسجنه بضعة أيام وكان في المحبس نفسه سجين آخر . ورأى الشاعر أن يخفف عن نفسه هذه المحنة فأخذ في الانشاد بلهجة مؤثرة . ولمح رفيقه يبكي فأعجبه منه هذا الشعور المرهف فشكره . ولشدّ ما كانت دهشته حين أعلمه سميعه انه معّاز بكى لمشابهة بين لحية الشاعر ولحية تيس كان عزيزاً عليه فمات .

وظنه صاحبنا (النحاس هذه المرة) فاخبرني انه كان طفيلياً يتعيش في مضارب العرب . يأكل الأرز بيديه والسمن يسّاقط على ذقنه (وكان يتلذذ لذكر السمن ويتلمظ) وسانده في الحديث

جاره وكان جمّالاً ، فقص علينا كيف شاهد مارداً من الجن في وادٍ سحيق وقد سمع عزيف الجن حتى شاب رأسه هلعاً .

جاءت ثالثة البلايا ، تلك الليلة ، اي ممرضة الليل ، وهي أرمنية عجماء ، صفيقة الوجه ثقيلة ، الأرداف واللسان ، وفي يدها طعام العشاء وهو أشبه شيء بطعام النساك الحبساء فلم أمدّ اليه يداً .

ومن واجب ممرضة الليل أن تظل ساهرة تفتقد المرضى ، ولكن هذه كانت تمر بهم في أول الليل وآخره وتنام في الرواق على كرسي بحري مستطيل فيسمع لها أطيط وغطيط ، وشخير ونخير ، فتقضّ على المرضى المساكين مضاجعهم .

وانطفىء الضؤ في الساعة التاسعة فخلتني في جحيم ، وأطلقت عيني بالبكاء حتى مطلع الفجر ، عازماً على مغادرة المستشفى ولو الى القبر .

وجاءت زوجتي في الصباح واتصلت هاتفياً بصديقي القديم الدكتور شكري بلاّن رئيس مصلحة الصحة . فجاء المستشفى بنفسه . وأمر بأن تهيأ لي غرفة خاصة كانت معدة لمنام الدرك ، خفراء السجن في مستشفى الصنائع . وعرّفني الى الراهبات القائمات بأمر المستشفى ونقلت الى غرفتي الجديدة فأدركت في تلك اللحظة معنى قولهم انتقال من الجحيم الى النعيم ، وصرت يومئذٍ أخاً وابناً ومستشاراً للراهبات الفاضلات وقد بلغن الذروة في التضحية والتجرد

* المحبة *

وقبل عيد الفصح لمـــا كان يسوح يَعلمَ أن ساعتـه قد أتت لينتقل من هذا العالم الى الآب وكان قد احب خاصته الذين في العـالم أحبهم الى الغاية (يوحنا ١٣ : ١)

فاذا كنت انا الرب والمعلم قـد غسلت أرجلكم فيجب عليكم أنتم ان يغسل بعضكم أرجل بعض (يوحنا ١٣ : ١٤) لأني أعطيتكم قدوة حتى انكم كما صنعت أنا بكم ، تصنعون أنتم أيضاً

اني اعطيكم وصية جديدة ان يحب بعضكم بعضاً وأن يكون حبكم بعضكم لبعض كما انا أحببتكم (يوحنا ١٣ : ٣٤)

ما بالك تنظر القذى الذي في عـين أخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك (متى ٧:٣)

أكرم أباك وأمك احبب قريبك كنفسك (متى ١٩ : ١٩)

أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وأحسنوا الى من يبغضكم ... (متى ٥ — ٤٤)

أحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنـك وكل

قدرتك . هذه هي الوصية الأولى (مرقس ١٢ : ٣٠)

فقال ليسوع وَمن قريبي؟ فعاد يسوع وقال كان رجل منحدراً من أورشليم الى أريحا فوقع بين لصوص ، فعرّوه وجرحوه ثم مضوا وقد تركوه بين حي وميت فاتفق انّ كاهناً كان منحدراً في ذلك الطريق فأبصره وجاز وكذلك لاويّ وافى المكان فابصره وجاز . ثم ان سامرياً مسافراً مرّ به فلما رآه تحنن فدنا إليـه وضمّد جراحاته وصب عليها زيتاً وخمراً وحمله على دابته واتى به الى فندق واعتَنى بأمره وفي الغد أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال اعتن بأمره ومهما تنفق فوق هذا فأنا ادفعه لك عند عودتي. فأي هؤلاء الثلاثة تحسب صار قريباً للذي وقـع بين اللصوص . قال الذي صنع اليه الرحمـة فقـال له يسوع امض فاصنع انت كذلك (لوقا من ٢٩ الى ٣٨)

لو كنت أنطق بالسنة الناس والملائكة ولم تكن فيّ المحبـة فانما انا نحاسٌ يطن أو صنج يرنّ . ولو كانت لي النبوءة وكنت أعلم جميع الاسرار والعلم كله ، ولو كان لي الايمان كله حتى انقل الجبال ولم تكن فيّ المحبة فلست بشيء (بولس كورنثس ١٣)

لان الناموس كله يتمم بكلمة واحدة وهي أحبب قريبـك كنفسك (غلاطيه ٥ : ١٤)

وقبل كل شيء أحبوا بعضكم بعضاً محبة شديدة فإن المحبـة

تستر جمّاً من الخطايا (بطرس الاولى ٤ : ٨)

ونحن قد عرفنا وآمنّا بالمحبة التي عند الله لنا . الله محبة فمن يثبت في المحبة فقد ثبت في الله والله فيه (رسالة يوحنا الأولى)

أحسبني قد أطلت عليك في الاستشهاد وقد يخطر لك ان تتبرّم فتقول هذا كتاب مذكرات لا كتاب عظات ، ولكني أسألك باسم المحبة نفسها أن تتحملني . فالحديث عن المحبة في هذا العصر الذي تقلّصت فيه من الصدور ، أي في غيابها ، ليس اغتياباً ، بل حنين الى منفيّ أقصاه تقديس الشهوات والتكالب على المادة ، وضيّعه أهله وانما كانوا به يفاخرون

المحبه ركن المسيحية فدلّني على المسيحيين .

أجل ليست المسيحية طقوساً ومراسيم او تماثيل وتهاويل ، وليست تراثاً وثنياً رُكّبت فيه قوالب حديدة . وليست حرفاً جامداً أو منطقاً بارداً ، أو قياساً لا يستخرج منه إلا ما يوضع فيه . وليست تنافساً على رئاسة أو وسيلة لاثراء وتصدّر ديوان ، وتزيّن بالدمقس والأرجوان

وليست المسيحية اغتسالاً بماء ، أو ذريعة لتعصب وبغضاء ، ولكنها اعتماد بالروح ورحمة واحسان ، وتساهل وغفران ، غفران المسيح لمستحقة الرجم اذ يقول لها : اذهبي ولا تعودي الى الخطيئة ، فيحطم كبرياء الفريسيين ويفضح رياء الكتبة

وليست المسيحية في الانجيل بل في بولس واوغسطين ويوحنا الصليبي وفرنسيس الاسيزي وتيريز دافيلا وفانسان دى بول

ليست المسيحية صليباً مزخرفاً يُعلّق في كنيسة ، أو ذهباً مرصعاً بالألماس يزدان به صدر ، فالمحبة قبل الصليب اذ لا معنى له بدون المحبة .

المسيحية شعلة مقدسة تبدأ من الداخل وهي فعل وخَلْق وإنتاج لا تأمل أجوف وتبلّد واستسلام . المسيحية وجودية لا خيال ، وقد قال المسيح ما جئت لألقي سلاماً بل حرباً . أجل حرباً على الشهوات والكسل والجهل .

وبعد هذا الطواف نعود الى المحبة وانك لا تكاد تراها في هذه الايام إلا بين فئة من المتصوفين والراهبات .

ان الراهبة الجديرة بهذا اللقب هي على انوثتها وضعفها اشجع من حملت الغبراء حين تقدم على تمريض المصابين بالبرص مثلا ، عالمة علم اليقين بانها ستصاب وتموت بهذا الداء الذي لا شفاء منه إلا بالموت ، بعد أن يتناثر اللحم عن العظم . الداء الذي يمثّل لك على شاشة السينما فتقضي ليلك في هلع مما رأيت . أجل ان المحبة تتجسد في هذه الفئة من الراهبات اللواتي يفنين حياتهن في خدمة المرضى يبتغين بذلك وجه الله .

وعندي ان هذه المهمة أشق من الاشغال الشاقة التي يحكم بها

على المجرمين .

تصور ايها القارىء تلك الأنامل اللدنة التي لو شاءت لرسمت الروائع في الديباج ، وابتدعت آيات الطرب في العاج فأيقظتها بمرّ البنان ، واستطلعت السحر من أوتار الكمان .

تصور هذه الانامل غائصة في الجروح والقروح في النتن والقذر اللذين لا يتغلب عليهما سوى العبير الفياض من تلك النفوس الطاهرة .

حقا ان المحبة تجترح العجائب

وأخص بالذكر من الراهبات اللواتي صرفت في ضيافتهن تسعة أشهر رئيسة المستشفى الأخت (Anna) ، ولو كانت هذه الرئيسة في العالم لصلحت أن تكون ملكة لانها فضلاً عن تقواها العميقة وعلمها الواسع ، هي رفيعة التهذيب ، نبيلة الخلق يوحي اليك منظرها الاناقة والتواضع والهيبة والبشر في آن واحد .

ولن أنسى ما حييت الأخت اينياس (Sœur St. Ignace) وهي اسبانية الأصل واحدى اميرات الاسرة المالكة ، ولكنها تخفي نسبها الشريف اقتداء بمعلمها الذي ولد في مذود . فاذا أنت حدثتها وتصديت لهذا الشأن صرفتك عنه بلباقة الى موضوع آخر ، تلك الراهبة هي روح المستشفى وحركته الدائمة ، واليد اليمنى لاطبائه وتراها زاخرة بالنشاط والحيوية بالرغم من افتقارها الى العافية وألمها الجسماني المتصل ، فلا تكاد تراها إلا باسمة متطلقة الوجه ،

تعمل بسرعة هائلة وتضمد جراح عشرة مرضى في أقل من ساعة. وكأنما الله ركب في تلك اليد الفاضلة عبقرية أحذق الرسامين ومهارة أكبر الجراحيين . وكانت تحقن وريدي بدون شدّه بالمطاط ، وطال ما تعثّر فيه مشاهير الأطباء لانه عميق كألمي ، رقيق كحظي من الحياة

* الغرفة الحمراء *

ولنعد الآن الى حيث كنا

قلت ان الطبيب القومندان الجراحي المستشار الصحي ، قال بدمّل في الكلية ، وبالرغم من نتائج التصوير المعاكسة لهذا الرأي أصرّ على اجراء العملية . ووافقته على اصراره بعد أن أكّد لي بصراحته الاجنبية العسكرية أن في العملية خطراً على الحياة . فتفاءلت بالموت ونقلت الى المشرحة . وبينما كانت الممرضة تربط يديّ ورجليّ عرفت انها من بعقلين (الشوف) فسألتها عن موسم الزيتون في تلك السنة . ودخل الطبيب فسمعني أحدثها فأسرّ الى الراهبة المعاونة كلاماً مؤداه ان المريض أحد اثنين فهو إما مجنون وإما يائس لا يبالي بالموت وكان مصيباً في الثانية .

وشهد هذه العملية الخطيرة خمسة اطباء بينهم صهري الدكتور موسى عيد وقد أغمي عليه لهول ما رأى ، : لأن الطبيب بعد أن مرّ بالكلى فوجدها سليمة شقّ الخاصرة وانحدر منها الى (طية ، الفخذ فكان طول الجرح خمسة وثلاثين سنتيمتراً في عرض وعمق ، اي شبيهاً بتلك الثلوم الفاغرة التي يشقها الفلاحون لزرع الأرض . ولكن هذه الجولة الاستكشافية التي جالها المبضع في

جسدي أسفرت عن (مالطه يوق افندم) . وأصبت بوافدة صدرية في اليوم التالي فلففت بالقطن ودُهنت بزيت الكافور ، وكانت (المصول) والابر في الوريد والعضل وتحت الجلد موصولة اتصال الليل بالنهار . وجاء دور انتزاع الشاش من الكهف الجديد في اليوم الخامس لفتحه . وكان القومندان ينتزعه عسكرياً فاعاني من الألم ما يحس ولا يوصف الا بلفظتي (أكثر) أو (أقل) لان اللغة تنوء بالتعبير عن المشاعر العميقة كما يقول برغسون في كتابه (معطيات الوجدان البديهية) وقد خالفه في ذلك صديقي الألمعي الدكتور كمال حاج ولا مجال لتفصيل ذلك في هذا المقام فلا تطالبني ايها القاريء بوصف ألمي في تلك الدقائق العشر وقد خلتها عاماً كاملاً . والزمن يتطاول ويتقاصر تبعاً للحالات النفسية التي يمر فيها الانسان . فمن الزمان ما تخاله مسمراً ومنه ما يمر مرور السهم ومن الوقت ما يند عن الزمان فيكون في السرمدية المطلقة .

النزيف

وغادرني الطبيب بعد أن ملأ الغار الأحمر شاشاً جديداً . وما هي الا دقائق معدودة حتى شعرت بوخزة مؤلمة كأنها طعنة رمح عقبها انفجار وتدفق فوضعت يدي على الفراش فاذا هي صبيغة بالدم العبيط .

واتصلت الراهبة الممرضة بالطبيب وقبل ان ادخل في الغيبوبة

لمحت دمي يجري في أرض الغرفة بعدما اخترق الفراش فأية غرابة ترى بعد ذلك في البيت الذي أقول فيه بقصيدتي (ألم) :

وجرت على حدّ المباضع مهجتي
فشفارها مصبوغة بدمائي

أجل لقد اصطبغت بدمائي المباضع والمناضد والأسرّة حتى (بلاط) الغرفة الرحيبة أكثر من مرة

ونقلت الى غرفة العملية فسد الطبيب الثغرة المفتوحة. واستفقت في سريري وقد هبطت دقات النبض واضطرب القلب وابيضّ الوجه وبدأ النزاع بين روح تود الانفلات وجسد واهٍ يمسكها بآخر خيط من خيوط ارادة الحياة

واستدعى اهلي فلمحت في وجوههم الذعر ، وحملت لساني على النطق لأبعث فيهم الشجاعة ، وكنت آنئذٍ في مثل نشوة السكير وفي الحقيقة ليس من ميتة أهنأ من ميتة النازف

وبقي الشاش في الجرح مدة عشرين يوماً هذه المرة والطبيب لا يجرؤ – بالرغم من شجاعته العسكرية – أن يمد اليه يداً لئلا يتكرر النزف . وقد انبعثت من الجرح رائحة التعفن حتى تعذر على عوادي أن يمكثوا في الغرفة أكثر من دقيقتين . وكنت تارة أسدّ أنفي وطوراً أريق (الكولونيا) على سريري لأقوى على الاحتمال ولكن السبب لم يبرح مستمراً . ولقد اعتبرت بهذا

الأمر من الجهة النفسية فقررت ان على التائب اقتلاع جذور الشهوات والشرور أولاً ، وإلا ظلت الأسباب نفسها تفضي الى النتائج نفسها . وما أشبه أسباب الخطيئة بالعلّيق تقطعه فيعود أحد مما كان وأرهف شوكاً ، فالشهامة أن تقتلع أصوله وكذلك النفس لا تغمرها النعمة إلا بعد إزالة الحواجز .

وأخيرا انتزع (الشاس) بكل حذر وبقي الداء مكانه . وكان العقيد (القومندان) يزورني ليتفقد الجرح ، وتظاهر ذات يوم انه يريد تغيير الضماد فأطعت وقلبتني الممرضة على الجانب الأيسر وكان في الحقيقة يريد إجراء شقٍ بسيط (عسكريا) اي (Desinsertion des muscles) ، وشعرت بالسكين تغوص في أعلى الفخذ وضغطت أسناني من شدة الألم فانكسرت إحداها وصاحبنا ماضٍ في عمله ، ولكنه لم ينسَ ان يطري شجاعتي في تحمّل الألم .

وبعد مرور شهرين أجبرني صاحبنا على الحركة باعتبار الجرح آخذاً في الألتئام ، متوهما اني شفيت . فلم يبقَ الا أن أروّض جسمي على الحركة والمشي ريثما تستعيد عضلاتي مرونتها وأعود سيرتي الأولى فما أطيب الاحلام

أكرهت على المشي فمشيت ، وأجبرت على طلوع الدرج اربع مرات في اليوم فطلعت والألم مرافقي كيفما تحركت ، ولو فقِه الطبيب ان الداء في العظم لأكرهني على الراحة ، ولكن الله سبحانه شاء لي .

ان اكون أيوب القرن العشرين مضاعفاً فلو شفيت فمن يكونه ؟

ألم حتى الأظافر

وتعذر علي المشي لانغراز ظفر الابهام باللحم في الرجلين كلتيهما وعبثاً داويتها بالمطهرات ، وبدأ التقيّح والتورّم والألم الشديد . فتطوع (القومندان) لنزعها بعملية جراحية فاستأصلها (عسكريا) ونسي ان يضع (الغليسرين) على الجرح ليحول دون التصاق الشاش . وعندما حاولت الأخت (اينياس) تضميد الجرح في اليوم الثالث كان الشاش قد التصق باللحم التصاقاً شديداً حتى أصبحا توأمين متداخلين ، فارجأنا الفصل بينهما الى اليوم الخامس ريثما يأتي الطبيب ولكنه لم يأتِ . وازداد التوأمان تماسكاً وائتلافاً وأربى اللحم على الشاش من بعض اطرافه ، وعبثا حاولنا تفريق العشيقين بسكب السوائل المطهرة لترطيب المكان وتبريد اللوعة . وعبثاً نقعت الرجلين في الماء الفاتر نصف ساعة . وجاء أحد اطباء المستشفى في تلك الفترة وقال سنسلخهما سلخاً فيكون الألم أشد وأقصر في وقت واحد .

وصرخت صرختين صحبهما نثير من اللحم ورشاش من الدم ، وليلة شبيهة بمئات الليالي التي وصفتها في قصيدتي ألم بقولي :

أوّاه لو كان الرقاد يزورني   لرضيت من دنياي بالاغفاء
لا يلتقي جفناي الا خلسة   فكأن بينهما قديم عداء

قضيت تسعة أشهر في مستشفى الصنائع ولم ألد شيئا . وقد استنفد الطب حيله جميعاً واستنفدت مجموعة من الأدوية مضافة الى أخواتها السالفات ولكني أفدت كثيراً من الجهة الروحية . وكانت الأخت(اينياس) تضع بين يدي أمتع المؤلفات الروحية لأكبر مفكري أوربا . ثم اني افدت من الجهة الطبية فائدة عقبتها فوائد أخرى لكثرة التمرس بالبلايا كما ستراه في حينه . وفي ذات يوم جاءتني الراهبة بمؤلف طبي استعارته من طبيب قدم حديثاً من ايطاليا لتنقل عنه فصلًا متعلقاً بحمى مالطه وكلفتني نقله لكثرة مشاغلها فنقلته من ألفه الى يائه . وكنت اقابل بين اعراض مرضي واعراض الحمى المالطية فوجدت في الكتاب (مالطه ورَدْ) أما في جسمي (فمالطه يوق افندم) . وغادرت المستشفى الى الجبل مدة شهر وعاودتني الأعراض فهبطت بيروت وقابلت القومندان فلم يرَ من لزوم للعود الى المستشفى . وحاولت الرجوع الى الجبل فسدّت الطريق في وجهي لاحتلال الانكليز منطقة الجنوب وأنا منها . ولا غرو فقد سدت في وجهي من قبل ومن بعد أرحب السبل إلاّ سبيل الأمل برحمة الله .

استأجرت مع زوجتي غرفة في الأشرفية ومعنا ولدنا الصغير جواد اذ كان اخوته الثلاثة في قريتي بتدين اللقش . وكان أثاث بيتي مودعاً في غرفة في بعبدا وقد ضاع بعضه ولم آسف إلا لضياع ديواني الشعري وهو جهود سنين ، ونضرة خيال الشباب الآفل ، ولم يبق من ذلك الديوان سوى ما نشر في الصحف

وشهدت الغارات الجوية وهلع جيراني وتسابقهم الى الهرب والاعتصام بالجبال – عدا الجنوب – . وكان الجريح الأعرج أشجعهم على البقاء ولا فخر ، فقد حيل بيني وبين قريتي وفرغت يدي من المال اذ كنت محالاً على الاستيداع . وألفت عيش الفقراء أثناء الحصار وذقت خبز الأفران الأخضر اللون المعجون بماء البحر . واستقويت كثيراً بالله وهزئت بالموت حتى رأيته أول المراحم الالهية .

وفك الحصار فقضيت الصيف في بتدين ، وعدت الى الوظيفة قاضياً من الدرجة الأولى في محكمة بيروت البدائية حيث قضيت سنة وبضعة أشهر والجرح مفتوح ، والتداوي مستمر ، والنفقات باهظة ، والصديد في ازدياد وقد تغلغل في مناطق كثيرة فنخر العظم وهرأ اللحم وفتح منافذ أربعة بدلاً من واحد .

وكنت أتحامل على نفسي فاجلس على قوس المحاكمة وحرارتي فوق الثامنة والثلاثين أحيانا فأصرف عن ذهني اني مريض ، فاذا شعرت بدوار عمدت الى الايحاء الذاتي (autosuggestion) فأقنعت نفسي بأن الدوار ناجم عن كأس خمر .

لقد تهرّبت من الحقيقة المؤلمة ولكن الى متى يدوم الهرب ، والفرار من الواقع شبيه بفرار قايين من وجه الله . أو الفرار من الموت والموت في عناصر الحياة نفسها (أينما تكونون يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة)

* المستشفى رقم ٥ *

التقيت صديقي القديم الدكتور بلان في ساحة قصر العدل ، في أواسط تشرين الثاني سنة ١٩٤٢ ورآني أعرج متثاقل الخطوات أتوكأ على عصاي ، وليس لي فيها مآرب إلاّ تلافي السقوط على الحضيض . وكنت ألهث إعياء والعرق يتحدر من جبيني وقد شاعت في وجهي صفرة الفناء . ولعله في تلك اللحظة قابل بين عهدين فذكر قاضي تحقيق بعبدا سنة ١٩٢٩ المتدفق صحة ونشاطاً ونضارة وجه ، ورآه اليوم شاحباً منقبض الأسارير فرثى له

وارشدني الصديق الى الدكتور جورج بدر ولم أكن قد سمعت بذلك الاسم من قبل ، فتيمنت بالاسم الجديد وجئت الحكيم في عيادته فوجدته شاباً في نحو الخامسة والثلاثين من العمر ، الا انه في رصانة الشيوخ قليل الكلام كثير التفكير . وقد أتعبتني هذه الرصانة لأول وهلة اذ اندفعت في سرد الحوادث كالسيل المنهمر وربما ثرثرت فذكرت النص والهامش ، على عادة المرضى الذين يأبهون للحواشي اكثر مما يهتّمون بالجوهر . وكنت انتظر – عملاً بسنة المحاكاة – أن يجيبني مُفصلاً ، ولكنه أجمل فأجابني بكلمات مؤداها انه يبغي صورة جديدة يقابلها بالصُور القديمة . وعبثاً

حاولت إقناعه بأن هذه التلال من الصور التي بين يديّ برّأت العظم
من كل تهمة وشَهِدتْ له بالسلامة والمناعة . ولكن دفاعي عن
المتّهم كان شبيهاً بدفاع بعض المحامين ، يشهدون للمجرم بالقداسة
ونقاء الكف وفي قرارة نفوسهم شيء من .... حتى ،

وصورني الدكتور قدّوره وكنت قد عرفته قبلاً في جلسات
عديدة استعملت خلالها الأشعة (ما وراء البنفسجية — Ultra
violet) . وما ان اجتمع الطبيبان بعد التصوير حتى حكما على
المتّهم وقررا أنّ عظم الحرقفة (Iliaque) مصاب وانه مصدر
البلوى وكان هذا الاكتشاف ايذاناً بعهدٍ جديد هو العهد العظمي
قياساً على قولهم العهد الحجري والعهد الحديدي .

وحاول الطبيب معاملة المتهم بالحسنى وذلك باستعمال مركبات
(السيلفاميد) مدة من الزمن فاذا لم تنجح الحيلة عدنا الى السكين
لأن العملية تشلني عن العمل ، وذلك ما كنت اتحاشاه دفعاً لازعاج
مفتشية العدلية بتقارير مرضية جديدة تضاف الى الكومة السابقة
وتخفيفاً عن صديقي الوفي ورفيقي في مدرسة الحقوق الاستاذ
انيس صالح مدير العدلية اليوم .

ولا يسعني أن أمرّ باسم الرجل قبل ان ادوّن له في سجل
عرفان الجميل سطراً خالداً فياضاً بالشكر لانه غمرني بعاطفة الأخ
الشفيق الذي لم تبدّل الأيام شيئاً من خلقه الرفيع ، بالرغم من المكانة
العليا التي بلغها وهو بها جدير لما أحرز من علم واسع ، ولما

انطوت عليه نفسه من ترفّع ونزاهة . وقد كانت هذه الصفات
مضافة الى ذكائه المشبوب بارزة فيه منذ كان طالب حقوق يسير
في طليعة الرفقاء

حلم عجيب

ليس هنا مجال البحث في منشإ الأحلام من الجهة السيكولوجية
ولقد اجملت هذا الموضوع في كتابي (حديث العشية) مشيراً الى
تشعب الآراء حوله وحول الظاهرات النفسية من مناجاة الأرواح
الى التنويم المغناطيسي ، الى التحاكي على البعد (Télépathie)
ولكن أمراً واحداً استطيع الجزم فيه وهو أن العلم في هذا
الصعيد لم يترسّخ بعد فبينا ترى (فرويد Freud) يرد الأحلام
الى الغريزة الجنسية المكبوتة ترى سواه من العلماء والفلاسفة
يردونها الى مصادر أخرى عديدة . وترى الحس المشترك المؤيد
بالواقع يثبت تحقيق أحلام بعد حدوثها بأيام او بسنين عديدة وها
أنا اقص عليك حلماً عجيباً .

قلت ان الدكتور بدر حاول معالجة الداء بالطرق السلمية قبل
أن يعمد الى المبضع . وجرى على هذا النحو مدة ثمانية أيام .
وفي ليلة ٢٠ كانون الأول سنة ١٩٤٢ الساعة الثالثة بعد منتصف
الليل ظهرت لي في الحلم المرحومة والدتي ، وكانت قد لقيت
وجه ربها في ٢٢ أيلول من السنة نفسها . وربما كانت نكباتي
الموصولة سبباً في تقريب أجلها . ولقد كانت حياتها استشهاداً

مستمراً اذ رافقتها آلام عصبية نكدت عليها عيشها مدة ثلاثين سنة .

ولست لأصف فضائلها اولاً لانها أمي والمرء متهمٌ بحب أبويه ، وثانياً لأن كل اطراء يبقى دون ما تستحق فأكون قد حقرتها من حيث اردت اكرامها .

رأيت والدتي في زيّ ممرضة واقفة بجانب سريري وفي وجهها ألم ظاهر واضطراب فقلت ما بك يا أماه فقالت اني احس ألماً شديداً وأشارت الى عظم الحرقفة وأضافت ما هذا معناه : انا بحاجة الى جرّاح ، الى عملية وتأوهت وغاب عني ذلك الطيف الحبيب . وجئت الطبيب مبكراً فقلت غداً ادخل المستشفى فعجب لهذا التبدل ولهذه اللهجة الجازمة التي لم يتعود مثلها من مريض ، فاعلمته بالحلم فقال أنت وما تشاء ولكن دع العملية الى ما بعد عيد الميلاد ، فقلت بل أريده عيداً مخضباً بدمي فلعل طفل المذود يتقبل دم الخاطىء فيضيفه الى قرابين المجوس

ودخلت غرفة العملية في ٢٦ كانون الأول ، وبدلاً من أن آلف رائحة (الايتر Ether) المخدر بعد طول المطاف وتمرسي بالآفات ، أصبحت لا أطيق تلك الرائحة وحسبي أن أسمع حديثاً عن الأيتر لأتقيأ .

وتدلك هذه الظاهرة على مبلغ تأثير الوهم من جهة وعلى

الانفعال المتبادل بين الجسد والروح فانها في ارتباط وثيق متوازن فاذا طغا احدهما فانما يطغو على حساب رفيقه ، اذ لو كان الانسان روحاً صرفاً لكان ملاكاً ولو كان جسداً صرفاً لكان حيواناً .

واستفقت من المخدر بعد ان استغرقت العملية ساعتين ، وقد وجد الطبيب عظم الحرقفة متفككاً معجوناً بالصديد اي ان (المقحطة Curette) جرفت الوحل العظميّ . واستخرج الازميل والمطرقة ما كان قد تهرّأ من العظم وظل معتلقاً باذيال أمه الحرقفة . وغاص المبضع في الجهة الوحشية من الفخذ لتوسيع الأخدود الذي فتحه الصديد منذ سنة ١٩٤٠ ولاقتطاع اللحم المتهرّىء . وتأكد الطبيب أن التعجيل في العملية كان من قبيل الالهام لأن الدمار اصبح على بضع مليمترات من الوصلة (Articulation) وتأكدت ان روح والدتي لم يأتني عبثاً فحنان الأمومة يتمرد على الموت لانه اقوى من الموت

كان قد مرّ على اصابة العظم بضع سنين صرفناها بالحدس والتخمين فاين تاه بَصَرَ المصورين وضاع ذكاء الأطباء النطس الراسخين .

مرت سنون وشهور والطب يلف ويدور وظل في الشكل ولم يدخل الأساس (عفواً عن هذا التعبير القضائي) الا في هذه العملية اي بعد خراب البصره . لقد جاء الدكتور بدر متأخراً لان القنبلة كانت قد انفجرت قبل وصوله فتعددت شظاياها

وضحاياها ومن السهل ان تلتقط الدجاجة ، ومن المستحيل ان تلتقط ريشها المتناثر في مهبّ الريح .

في حكايات لافونتين (Lafontaine) الشاعر العميق ان قروياً شكا الى سيده صاحب المزرعة ارنباً برياً كان يسطو على بقوله ليلاً فيأكل منها ما يأكل ، ويفسد ما يفسد ، فوعده السيد الزعيم بانقاذه من هذا العدو الجريء . وفي اليوم التالي لم يُرع الفلاح إلا الخيل تحيط ببيته من كل جانب . فتطلّع فرأى سيده على رأس كوكبة من الفرسان القادمين لمطاردة الارنب فنزلوا ضيوفاً على القروي واتوا على ما في بيته من الزاد والخمر . ثم انهم همّوا بمطاردة الارنب فهدموا سياج الحديقة لتمكين الخيل من العبور ، وأغارت الجياد تعمل سنابكها في النبت الطرير . وما هي إلا ساعة حتى سُوّيت الغراس اللدنة بالارض . اما البقول فعصرتها الحوافر فغار ماؤها في التراب ، واعتلقت بقاياها بنعال الافراس . كل هذا والارنب في زاوية الحديقة يهزأ بالمطاردين السكارى . وانصرفت الكتيبة بعد ذلك وأبقت للقروي مجموعة من الخراب لا تستطيع مثلها كل ارانب الدنيا في مدى سنة .

اجل بقي الارنب المدمر ست سنين يرتعي في عظامي هانئاً هازئاً بالمطاردين ، ولو ابصروه منذ البدء لقضت عليه ضربة خفيفة ولكنه سمن وبطر فعاد سبعاً ضارياً رهيف المخالب حديد الأنياب يتخطر بين خدر وخدر ، ويحتلّ الحنايا فيشقها كهوفاً ، ويمهدها ليربض فيها ويتمطى بعد الشبع .

وعدت الى القضاء في ١١ شباط سنة ١٩٤٣ وكأني عدت الى قصر العدل مودّعاً لاني لم اقضِ فيه سوى اسبوعين . وقد لجأت الى الايحاء الذاتي هذه المرة وتظاهرت بالقوة مستجمعاً كل ما في ذاكرتي من تصلّب الرواقيين ، مستحضراً مرقس اوريلّوس وابيكتيت والفرد دى فيني وذئبه المتمرد . ولكن هذه الوثبات من خلال الضعف كانت اشبه شيء بنار ضعيفة تندلع منها ألسنة اللهيب في وثبات متقطعة وتكون هذه الظاهرة الخادعة بدء خمودها.

غادرت قصر العدل الى المستشفى وكان ذلك اليوم آخر عهدي بالقضاء وبالمشي على قدمين ولو أعرج . بل كان آخر عهدي بالعالم الخارجي فلا أطلّ عليه الا من شرفة الذكريات ، ولا أرى النجوم الا محمولاً الى المستشفى ، أو معاداً منه الى بيتي مسجّى على محمل كما تُحمل الاشياء مسطحةً (وليس بين بيتي ومستشفى الروم سوى ٣٠٠ متر) . وكنا نختار الليل ستراً تلافياً لفضول المارة واسئلة الرعاع وقد سمعتهم مرة يقولون هذا ميت .

أجل ! ميت ان كان الموت هو القعود عن الحياة التي يعرف منها الناس انها لذّات ومُتع ، وتجارة وجشع ، واكتظاظ وشبع فوق شبع ، وتفيّش وغرور ، ومناعمٌ وقصور .

اما اذا كانت الحياة انفتاحاً على معرفة واستكشافاً للذات الانسانية وتطلعاً الى الروح ومبدع الروح فليس هذا الانسان المحمول بميت

* عودٌ الى المستشفى رقم ٥ *

عدت الى المستشفى لعمليـــة ثانيـــة في العظم ، وكان الدكتور بدر قد أسرّ الى ذويّ منذ العملية الأولى أن ستتلوها عمليات ، وأن لكان وكاد أخوات ، فأعددنا المصول وقاطعات النزيف وأدخلت غرفة العملية واستعـــد الطبيب (البكتريولوجي (١)) لأخذ شيء من الصديد للمختبر لعلنا نهتدي الى (مالطه) هـــذه المرة . وأجريت العملية كسابقاتها . وممـــا هو جدير بالذكر شدة الألم الذي كنت ألقاه عقب كل عملية حين انـتزاع (الشاش) وابداله ، والجرح طريء بل الكهف عميق فاغر . فاعلم حفظك الله أن هذا الوجع المذيب كان يلازمني مـدة اسبوعـين بعد كل عملية وفي كل ضماد . فاذا ضربت هذا العدد بأربع عشرة عملية من أصل تسع عشرة حصل لديك مئة وستة وتسعون يوماً لقيت في كل منها ألماً يفوقِ الألم الذي تلقاه المرأة اذ تتعسر ولادتهـا (هكذا قال الطبيب) . فاذا استطعت ان تتخيّل – كما يتخيل مؤلفو الجغرافية خط الاستواء – امرأة عاشت ثلاث مئة سنـــة وضعت في أثنائها مئة وستة وتسعين ولداً استطعت تصور بعض الألم الذي لقيت .

(١) هو صديقي المدقق الدكتور بديع بازجي

وجاءنا المختبر باسم جديد للجرثومة التي تتأكّل العظم – ولكل جديـــد بهجة ولو كان اسماً لميكروب – فقال انـه من نوع الكوليباسيل (colibacille) ويُدعى (فرندي Frendy) فأنست بالاسم الجديد وهو من غير طائفة الجراثيم الثقيلة الوقع على الاذن مثل ال (Staphylocoque) وما شابه ذلك . ولفظة الفرنـــد بالعربية من الالفاظ الشعرية الأليفة ولو انها تلازم السيف القاتل

واتخذنا لقاحاً من (الفرندي) واستعملت بعـده مستحضرات كثيرة من مشتقات (الايروتروبين) كالسيروتروبين) (الامفوتروبين) (Amphotropine) ولكننا في هذه المرة أيضاً بقينا (مالطه يوق)

ولم تسفر العملية الثانية في العظم عن نتيجة جديـدة . ولم يكن التصوير ليعطي صورة صادقة عن حالة العظم ، فأصبحنـــا نعلم سلفاً انه اذا أشار الى الشبر فهناك المتر وأزيد . مَثَلُنا في هذا الاستنتاج العقلي مَثَل العين ترى القضيب في الماء منكسراً فيتداركها العقل ويصلح خداع النظر .

وقرّ الرأي هذه المرة أن تكون العملية العظمية الثالثة واسعة النطاق بحيث تتناول الحرقفة والصفحة الأمامية من الفخذ . وقبل تخديري بال (Ether) ذكرت ان ظفر ابهام رجلي الذي اقتلع مع رفيقه في مستشفى الصنائع عاد فنبت متخذاً شكل قشرة السلحفاة ، فرجوت الطبيب أن يقتلعه أيضاً فتكون الجراح مثلثة

وسيّان عندي – ما دمت نائماً – أكانت شفعاً أم وتراً . وجرى المبضع غائصاً تارة في العظم وتارة في اللحم ، وطوراً في الابهام ولكن الطبيب الانساني اليقظ لم ينس وضع (الغليسرين) تحت (الشاش) . وأصبت بنزيف في اليوم الثالث فتداركه الطبيب بال (Zimema) ولكن هذا النزيف كان بالنسبة إلى الغرفة الحمراء في مستشفى الصنائع قطرة من غيث .

وأصعدت الى الجبل (مزرعة الضهر) في ١٢ تموز سنة ١٩٤٣ آملاً ان أعود الى العمل في الخريف . وخطر لي في أواسط أيلول أن اتمرن على المشي فاستندت الى شخصين وخطوت في الغرفة سبع خطوات . وكانت هذه الخطى السبع أشأم من البقرات السبع العجاف في منام فرعون ، ومن سنوات الالم السبع في حياة أيوب . وها أنا اليوم قد نيّفت على الأولين وربما صرت عبرة للآخرين فأنساهم هذا الذي من لبنان ذاك الذي في أرض عوص . مشيت قبل الأوان وقد قالت الحكماء : من تعجّل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه . وكثيراً ما يكون نصيب العَجول للوصول أن لا يصل أبداً .

وأنزلت الى المستشفى في اليوم التالي والقيح يتدفق والحرارة في حدود الأربعين . وكانت العملية العظمية الرابعة كأخواتها السابقات . واستقر الرأي أخيراً على تصوير الجرح مع حقنه بال (Lipiodol) وادخال المِسبر المطّاط ففعلنا فاذا بنا نكتشف ثلاث فقرات (Lombert) وقد تهرأ القسم الجانبي منها . اذن

فلنعد الى التنقيب في الظهر – على كل حال – لأنه لم يبقَ في الجهة الأمامية للسكّين مجال – وأراد بعضُ أصحابي أن نعقد مجلساً جراحياً للاستشارة فعقدناه برئاسة أحد اساتذة الجراحة ولم يزد الرئيس على رأي الدكتور بدر شيئاً . وتقرر إجراء العملية العظمية الخامسة . وسألت الجرّاح عما اذا كان يرى الاستعانة بالاستاذ هذه المرة ، علماً مني بخطر العملية فأجاب ، انه يتحمل تبعتها . ولم أجد بين الجراحين – وقد عرفت الكثيرين منهم – أجرأ من بدر ولا أنبل خلقاً ولا انصع وجداناً . وقد كان وما يزال الأخ الشفيق المترفع عن الكسب ، الملبي نداء الانسانية . وان بهذا الرجل وأمثاله دليلا على أن المروءة لم تنقطع بعد عن وجه الأرض .

وقد أجريت هذه العملية واستغرقت ساعتين وازيد نظراً لعمقها ولكثرة الأنقاض المستخرجة من الفقرات الجربة . وقيل لي اني افلتت من قبضة عزرائيل بعد عراك طويل ، بسبب الصدمة الجراحية وكثرة النزف ، وقد لمحت تفاصيل المأساة في وجه زوجتي فور استفاقتي من المخدر . ولم يكفِ الوريد الضعيف لتعبئة المصل وانواع الادوية المطهّرة والمقوّية فمُدّت انابيب الريّ ، اي الابَر الغليظة في البطن والصدر والفخذين حتى بلغت عروق القدمين . يومئذ ذكرت المتنبي حيث يقول :

وصرت اذا اصابتني سهامٌ
تكسرت النصال على النصال

وبعد فلِمَ اطيل الكلام على العمليات وهُنّ متشابهات ، تخدير ، فقحط عظام ، فاستفاقة وَقيء وعطشٌ وصوم ، وعذاب جدّ أليم في الضماد طول اسبوعين ، وإقامةٌ في المستشفى مدة شهرين.
وقد عقبت العملية العظمية الخامسة سادسة فسابعة . وطرأ على العظم بعض التحسين ونظف حيث مرّت السكين ، ولكن العلة اعمق من ان ينالها المبضع ، وقد استقرت في مكانٍ حصين ، وتغلغلت في تعاريج وسرداب ، لا نجرؤ على دخوله ولو اهتدينا الى الباب .

قال الشاعر يخاطب عشيقته :

وكنت اذا ما جئت ، جئت لعلةٍ
وافنيتِ عِلاتي فكيف اقول

وكذلك الطبيب افنى علاته فماذا يفعل ؟ لم تبقَ الا علة واحدة وهى الاهتداء الى دواء يقتل (الميكروب) الجرثومة الهدامة ، المتكالبة على نهش العظم . ولكن ما هي هذه الجرثومة وما اسمها بالضبط ؟ لقد عرضناها على المخابر جميعاً فبقيت غريبة على الجميع ولقد ذكرني هذا العرض بنادرة مؤداها :

ان إحدى العوانس الدميات ، اللواتي نيّفن على الخمسين ، استفاقت ذات صباح وقامت الى المرآة تفتقد وجهها فقالت : في الحقيقة اني سوداء اللون ، عمصاء العينين ، فطساء الأنف ، ولكنني بعيدة عن الشهوات طاهرة عفيفة . واسناني بديدة سوداء

كعنزاتٍ تخلّفت فربضت في زريبة ولكنني عفيفة ، وان شفتيّ كمشافر النياق وعنقي كأنبوب المدخنة ولكنني عفيفة . واني مسحاء الصدر كالمهمه القفر ، وان ساقي دقيقتان كسوق البَجع ولكنني عفيفة .

وكان الشيطان اذ ذاك في غرفتها — على غير عادة لانه يلازم خدور الحسان فيعيرهنّ الغنج والملق واللسان — فنفد صبره وصاح قاتلك الله يا غبية لقد عرضتك على الانس والجن فلم يلتفت اليك أحد .



* البنسلين *

عكفت على المطالعة في تلك الآونة فراراً من ألمين : أولهما وجع الجسم وهو الأدنى ، وثانيهما الم النفس وهو الأشد الأعمق. وأفضل ما تلوذ به النفس في هذه العزلة الخنّاقة كتاب نفيس . وقد أعفاني الجاحظ من وصف محاسن هذا الجليس ، فلم يترك للزيادة في هذا الصعيد محطّ كف ولا مغرز إبرة . وكانت أكثر مطالعاتي – ومدارها الفلسفة – تقتضيني جهداً عقلياً ، وخصوصاً عندما يسبح العقل – بل عندما يتخبّط – في الإلهيات « Métaphysique » وقد أعلن كنت (Kant) نفسه ، وهو من عرفت في عالم الفكر ، أن لا زورق لدينا ولا شراع لخوض هذا العباب . وكنت طلباً للراحة بين فترة وأخرى أتصفح جريدة او مجلة .

وقعت في يدي مجلة المختار وطالعت فيها مقالاً عنوانه البنسلين. وكانت اللفظة غريبة على الأفهام يومذاك ، ولا ريب أن الفضول – والفضول أساس المعرفة – هو الذي حملني على مطالعة البحث. وما أتيت على آخر المقالة حتى تمثّلت هذا الاكتشاف أعجوبة العالم الثامنة وأغمضت عينيّ على حلم جميل . ولذة الحلم أخصب

من لذة الحقيقة وأمتع ، ولا يضارع قوّة المخيّلة شيء ، فهي التي تزيّن وتلوّن وتقودك من شفق أحمر الى بساط أخضر ، حتى لتمنّي الفقير بالقصور والكنز المسحور ، والجريح المقعد بركوب الحصان ومسابقة الفرسان .

البنسلين ! وأين نجده في ذلك الحين ؟ وهو اندر من الصديق الوفيّ ، والتاجر المسماح ، والحسناء الذكيّة ، والغنيّ النبيل الخلق ، ولم تكن الكمية المستحضرة منه لتزيد على بضع غرامات . وقد تحدث العالم بأسره عن شفاء تشرشل يومئذ من مرض ذات الرئة بواسطة البنسلين . وكان علينا أن ننتظر وفي الانتظار مرارة وحلاوة يولّدان التوتّر ، والتوتّر ركن في الوجود على رأي صديقي الدكتور بدوي في كتابه « الزمان الوجودي » . وكنت في مثل قلق العاشق وأمله على حد قول الشاعر :

وما صبابة مشتاق على أمل   من اللقاء كمشتاق بلا أمل

وطال الشوق بضعة أشهر كانت هنيهاتها بالنسبة إليّ سرمديّة « بالأذن من الدكتور بدوي » . قطع البنسلين الأطلنتيك وبلغ القاهرة ، وقرأت في احدى الجرائد ان الكمية التي وصلت الى مصر هي خمسة ملايين وحدة (Unité) فاستبشرت وتهللت وما صدّقت أن دخل الدكتور بدر غرفتي حتى بشّرته بالخمسة ملايين قنينة . ولشدّ ما كانت خيبتي عندما أفهمني ان الوحدة ليست قنينة ولكنها دون الهباءة ، وإنما هي اصطلاح وُضع أساساً

لمقدار ، وان الخمسة ملايين هذه قد لا تكفي لمعالجة مريض واحد.

مُنًى إن تكن حقاً تكن أطيب المنى
وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

ولم يتجاوز هذا الرغد ساعتين .

وذكرني هذا الاصطلاح في وحدات البنسلين بطريقة الزواج عند النَور ، إذ يأتي الخاطب والد الفتاة فيسأله عن المهر – والصداق عندهم معجّل الأداء – فيطلب الوالد مبلغ خمسة آلاف ليرة مثلاً ، فيقبل الخطيب بالمبلغ ولكنّه لا يدفعه عيناً بل متَاعاً وماشية ، فيُثمن الطنبور بألف ليرة ، والغربال بألف أخرى ، والحمار بألفين ، والكلب بألف فيكون الثمن الحقيقي دون المئة ليرة .

وقطع البنسلين مصر الى لبنان ، ولكنّه بقي في حوزة الجيش وضُرب حوله نطاق من البنادق والمدافع ، وقد مرض رجل من آل ضوّ فأصيب بالنملة الفارسية على ما أذكر ، ولا شفاء لهذا الداء المفاجيء القاتل إلاّ بالبنسلين ، فتبرّعت زوجته بثمن طائرة للجيش ، فرفض الطلب ومات الزوج رحمه الله .

وفي صيف سنة ١٩٤٤ ، أصيب جاري في المستشفى – وكان المستشفى إذ ذاك محل اقامتي الدائمة – المرحوم شارل صليبا بذات الرئة على أثر عملية جراحية . فبذل أخوه الدكتور صليبا

أحد أطباء مستشفى الروم فوق ما في وسعه للحصول على البنسلين، وتوسّط نسيبه المطران صليبي والحكومة اللبنانية ، وأخيراً سمحت القيادة بكمية من البنسلين حملها طبيب ضابط بيده ، والتفّ حوله أطباء المستشفى يستعلمون عن كيفية المعالجة .

ولكنّ الموت كان إلى فريسته أسرع فقضى شارل مأسوفاً على شبابه بعد أن حُقن مرتين فقط بالمحلول الجديد . وأرجع البنسلين الى الجيش .

وبدأت مفاوضة مستشفى الجامعة الأميركية . وبعد جهود عدّة ، وتوسّط صديقي العلاّمة الدكتور الأستاذ جورج فوّاز ، نُقلت الى مستشفى الجامعة غبّ انتظار شهر ريثما تأتي نوبتي ، لأن الكمية كانت جدّ محدودة أي أقل من كميّة الفضيلة في الأغنياء ودون كميّة المروءة في الأصدقاء . وجيء بي الى المستشفى حيث مكثت شهراً استُعمل لي في خلاله ما يقارب المليونين من الوحدات ، وصُوِّرت وفُحصت من قمة الرأس الى اخمص القدم . وخف الصديد حتى خيّل الينا اننا وجدنا مالطه هذه المرة ، ولكن ظلت « مالطه يوق افندم » وعدت الى مستشفى الروم وفي خاطري قول الشاعر :

الى الماء يسعى من يغصّ بلقمة
الى اين يسعى من يغصّ بماء

اجل لقد غصصنا بالبنسلين نفسه فما العمل ؟

* الدود والذبّان *

وقال قائل إن في حلب جراحياً يقيم الموتى وهو يأتي بيروت مرة في الاسبوع فاستشره . فدعوتـه إلى جلسة في المستشفى وفحصني واطلّع الصور التقارير والم بتأريخ المرض وراى إجراء عملية كبرى تتناول قحط الفقرات الموبوءة وعظم الحرقفة، على ان يوضع البنسلين في الجرح نفسه فتكون هذه العملية خاتمـة الأحزان . فاذا لم تفض الى الشفاء تحتّم الالتجاء الى الدود .

وأجرى الدكتور بدر العملية على النحو المتقـدّم ، وغمرنا الجرح بالبنسلين ، وبقينا في سفر التكوين، لم نخرج منـه الا الى صحراء التيه خاسئين عن الدخول في ارض الميعـاد او لمحها من بعيد . إذن فقد وقـف الطب مكتوف اليـدين وعجز الدواء والقينا سلاح الدفاع فلم يبق إلا الدود .

الدود ، ـ ومجرّد الحديث عنه يبعث في النفس التقزز والكراهية ـ يغدو المرجع الفنيّ الاعلى في القرن العشرين بعد عجز السكين . فواخجلة البنسلين وكل مشتقات (الاين) بدءاً من الـ (Soluseptazine) حتى الستربتوميسين (Streptomycine) .

الدود ! الذي تقشعر لذكره القلوب والجلود ، يغـدو الامل

المنشود . واستوضحت الدكتور (Frichaud) عن مهمة الدود ، فقال لي ان هذا الضيف الشهم ، يأكل المهترىء من اللحم والعظم ، مهتدياً بالغريزة الى مرعاه ، وبعد ان يسمن ويكبر يستحيل الى حشرة تطير بجناحين . فأدركت حينئذ ان هذه المغـارة التي في جسمي ستغدو مطعماً ومحطة طيران ، واني أكرم الأحياء واسبقهم الى السخاء فهم يرجئون هذه المأدبة الى ما بعـد الموت وانا أفتش عن الدود وادعوه الى الوليمة حيّاً . ان ايوب النبي نفسه كان يطرد الذباب والدود وانا انزلهما اكرم منزل ، فأطوي اضلاعي على دود غير ملحود ، واسد المنافذ على الضيف لئلا ينفلت ، او يحسبها غفلة مقصودة ، او بخلًا وصدوداً وما تلك شيمتي في الضيافـة . بقي ان تخلق الدود بـل ان تولّـده ـ اذ الخلق مقصور على الله سبحانه ـ وهذه هي الصخرة التي تكسرت عليها رؤوس الفلاسفـة الماديين منذ آلاف السنين ، حتى أثبت لهم باستور Pasteur والواقع ان الحياة لا تنجم إلا عن الحياة ـ . وجيء بقطعـة من لحم عرضت للذباب فخف اليها وحوّم ، وغنى وترنّم ، وهنا ايضاً اترك الكلام للجاحظ ولعنترة في ما نقله عنه ابو عثمان في كتاب الحيوان .

وباض الذباب في اللحم فأنتن ـ وأعتذر من القارىء المتأنق عن وصف هذا المقطع وهو سرد خاطف لواقع لا بد منه ، فـاذا اضفنا الى ذلك ان قصيدة شارل بودلير (الجيفة) هي من اروع قصائده عرفنا ان هنالك جمالاً يدعى جمال القبح ـ وبعـد ايام دخل الطبيب غرفتي ووراءه ممرضة تحمل القطعة المرعى . واخذ

يمسك الديدان بالملقط مسكاً رفيقاً لا ضغط فيه ولا اكراه، ويدخلها في الجرح لتنسرب في الدياميس المظلمة . وسد عليها الكهف بالشاش لتبقى في حرز امين . ولا تسلني عما قاسيت في تلك الليلة من ضيوفي الداخلين يروحون ويجيئون ويقتتلون على الغنيمة . ولم انم الا في الساعة الخامسة صباحاً . وحسبت الأضياف في قيلولة بعد تخمة ، ولشد ما كانت دهشتنا في اليوم التالي عند ما رفعنا السدادة عن باب الكهف فوجدناهم صرعى على بكرة ابيهم . وحسبنا ان السبب في اضمحلال الديدان هو تبدل المناخ وانتقال هذه الحشرات الضعيفة من مرعى بارد الى مرعى دافىء . ومن لحم ميت الى لحم شبه ميت . واستقر الرأي على كشف الجرح وعرضه على الذباب ليبيض فيه مباشرة . وبذلت جرحي للذباب وهو اوقح الهوام كما تعلم ، ولكنه استحيا هذه المرة فكان يقع على اطرافه ويتذبذب ويطير ، كأنه علم بحاجتنا اليه فضنّ علي الحظ حتى بقذر الذبان .

وكنت يوم كنت في ميعة الصبا وعنفوان الشباب ، اسمر مع اصحابي وانتقل من حلقة شعر الى حلقة فكاهة ، ويكرّ الحديث على الحسان والدميات فأقول متندراً ان فلانة دميمة حتى لو غمست باللبن لعافها الهرّ ، ولو طليت بالعسل لتجافاها الذباب . وخطر لي ان اغري الذبان بالعسل ولكني علمت سلفاً انه سيأكل الطعم .... ويفرّ ..

* الدفاع الطبيعي *

لقد عجز المبضع ، ومات الدود ، وفرّ الذباب ، واخفق البنسلين ، فماذا بقي سوى تقوية الجسم بالغذاء المختار والمناخ الجيد . واصعدت الى الجبل ، الى ظهر الرملة الواقع على مقربة من قريتي بتدين لأصطاف مع عائلتي في بيت ريفيّ منفرد ، تحيط به غابات الصنوبر التي كنت اشهد بعضها من النافذة ، فاذكر ايام طفولتي ومطلع شبابي ، يوم كانت هذه التلال الخضر ملاعب صباي ، ومسارح فتوّتي ، ومراح صيدي ، ابغت الطير في وكورها والصبح لم يتنفس بعد ، فأشق الطريق بيدي الى مرابض الأرانب ، ومجاثم الحجال ، ومساقط الحمام . اتوّقل الأكمات متشبثاً بالصخور تارة وبشجيرات الارز طوراً ، فاذا تعالى الهديل في مسمع الفجر الطالع يممت شطر الصوت طافراً فوق ساقية ، او خائضاً ملتفّ العلّيق وماورده يجاذبني ثيابي فأترك له بعضها غير ملتفت الى الوراء ، او فاتحاً فرجة بين غصون الآس فأوقظ الريحان النائم فيتنفس عبيراً بعد ان تنفرط عنه اسلاك الندى .

ولا تسل عن اغتباطي يومئذ باصابة حجل يزلّ في المنحدر كالشهاب الثاقب ، فأشعر بنشوة الظفر كما لو كانت السماء بنجومها قد هبطت الى الارض هدية الي اخفّ اليها واحرزها في جعبة ،

مردداً في خاطري قول ابن الرومي :

وقد اغتدي للطير والطير هُجّع
ولو اوجست مغداي ما بِتنَ هُجّعا

وَجدّت قسيّ القوم في الطير جدّها
فظلت سجوداً للرماة وركّعا

طرائح من بيض وسود نواصع
تخال اديم الارض منهن ابقعا

نؤلف منها بين شتّى وانما
نشتت من آلافها ما تجمعا

فكم ظاعن منهن مزمع رحلة
قصرنا نواه دون ما كان ازمعا

وكم قادم منهن مرتاد منزل
اناخ به منا مُنيخ فجعجعا

أجل ما كنت احسب يومئذ ان هذه القوة التي تحملني على الحركة ، تلبية لنداء الحياة المضطرمة في جسدي ، ستفارقني فأحمل على الاكف كما تحمل الجنازة ، على فارق بيننا فتلك جثة لا تشعر لان صاحبها مات مرة وانا اموت في كل يوم مئة مرة .

وانتعشت في الايام الاولى بهذا الجو الذي فيه نشأت . وتعرفت الى نسيم الصنوبر كرة اخرى بعد فراق طويل ، واثار الحنين في نفسي ماضياً مطويّاً وهو ماضٍ غير حافل بمآثر ، بل

مليء بهنات ، وطيش صبا ، واضاعة وقت . ولكنها الحياة سلسلة موصولة الحلقات فاذا انقطعت واحدة منها بحثت عنها ولو بين الأشواك .

وأحسب أن أجمل حقبة في العمر واغناها هي تلك الحقبة المبعثرة بين الصبا والشباب اذ يكون المرء أقرب الى أمّه الطبيعة في تلك الحياة الريفية الزاخرة بالالوان . ألا ترى أن الالوان الطبيعية في قوس القزح تفقد من بهجتها وتصبح مكبوتة أسيرة حين تتناولها ريشة الفن لتدخلها في إطار برغم ما يضيف الفن الى الطبيعة من خلق وايحاء .

وحين تغلغل الذاكرة في الحقبة التي اقتطعها الانسان من الزمن ليدعوها الماضي ، يكون المرء باحثاً عن نفسه ، ولذلك ترى الاثرياء والعظماء يستشعرون لذة فائقة اذ يعودون الى وطنهم ولو ساعة مهما يكن هذا الوطن حقيراً ، وقد يكون جهنماً ثانية ، حقاً لقد صدق من قال :

لو لم يكن حب الوطن قتّالاً لاصبحت بلاد السؤ خراباً .

وكنت أعرض جرحي للشمس في صباح كل يوم . وقد سبق لي في السنين السالفة أن عرضت جسمي على الشمس قبل ان أعرضه على الذباب . ولكن الشمس التي عبدها الاقدمون

واعتبرها بعض سلفاء سقراط عنصراً خالقاً لم تفضِ عندي الى نتيجة سوى ارتفاع درجة الحرارة

وفي اوائل شهر ايلول سنة ١٩٤٥ ضاقت فوهة الجرح وانقطع نزّ الصديد ليتجمع القيح في الداخل وأخذت الحرارة بالارتفاع حتى أربت على الواحدة والاربعين . وبدأ التسمم وانتشر الخبر في القرى المجاورة اني دخلت في الاحتضار . وعادني يومئذ أحد أصحابي فتأثر لحالتي وأعدّ لي قصيدة رثاء أخبرني عنها بعد ذلك ولكنني لم أسمعها حتى اليوم .

وتقرر نقلي الى بيروت في ١٧ أيلول ، وخفّت النساء القرويات لوداعي حياً أو ندبي ميتاً . ولمحت ذلك في وجوههن وفي تلك المناديل (المحارم) العريضة التي يحملنها للتلويح بها عند إشارة الخطر .

وقد صحّ عندي بعد اختبار طويل ان النساء ، وعلى الاخص الريفيات يتلذذن بالمآتم أكثر مما ينشرحن للأعراس . ولفظة المأتم نفسها تعني في الاصل اجتماع النساء ثم أطلقت على المناحة .

والندبة عند النساء نوع من الغناء ، وهنّ يرتجلن الدموع كما يرتجلن زجليات الندب بصورة اصطناعية . واذا دخلت احداهن على النادبات عمدن الى حيلة طريفة لحملها على البكاء . وتقوم هذه

الحيلة بتذكيرها بأحد موتاها ، وقد يكون الميت جدها الذي توفي قبل مولدها فتبكي أو تتباكى . وبعضهن يحملن كمية من الفلفل يضعنها في اعينهن إثارة للدمع . وقد وقع لاحداهن مرة ان تمردت على الدمع فسألتها احدى النوادب عمن مات من اهلها ، فقالت انها وحيدة ولم يزل ابواها وجدّاها قيد الحياة ، ولكن امها اسقطت جنيناً ذكراً في الشهر الخامس من الحمل فندبنَ الجنين المذكور المجهول حتى بكت المرأة في آخر الامر .

ومما لا ريب فيه ان المرأة تجد في الدمع تفريجاً لكربة حقيقية او وهمية على الاقل . ولا تقتصر هذه الظاهرة النفسية على المصابات بالهستيريا بل تشمل معظم النساء . وليس ادلّ على ذلك من ولعهن بحضور الافلام السينمائية التي من نوع المأساة وقلّما ينشرحن للمهزلة (الكوميدي) وقد ينتقلن من البكاء الى الضحك بأسرع من طرفة عين

والنساء في المدن ايضا يغتبطن بالمآتم لا للندب بل لعرض الازياء والثرثرة والنقد والمظهر الكاذب في الحداد وما يتصل به . وليس هنا مجال التبسط في نقد معظم التقاليد البالية والمظاهر الزائفة ، ولكنها كلمة عارضة في سخاء الدمع عند المرأة ، هذا مع احترامي للكثيرات من السيدات وإجلالي لدموعهن الصادقة وإخلاصهن في الأسى والمواساة وصبرهن على النكبات ، منهن

الأمّهات والقديسات والاديبات الخالدات ورياحين الحياة ، فالمرأة مجموعة متناقضات رجلها في التراب ورأسها في السحاب

ونقلت الى المستشفى في سيارة كان افضل ما فيها انها خفيفة ترتجّ في المنعطفات والاخاديد ، لان هذه الحركة العنيفة التي حسبتها وبالاً سببت انفتاح الجرح وتدفّق الصديد وهبوط الحرارة من ٤١ ونصف الى ٣٨

* عود الى البنسلين *

أرجعت الى المستشفى وكان الطب قد اتجه الى استعمال البنسلين بمقادير كبيرة في الجروح . ولا غروَ فالعلم مجموعة تجارب ، ونحن دخلنا في التجربة هذه المرة ايضاً ، وتهللنا في الايام الاولى لانقطاع الصديد ، حاسبين ان الكمية تكفل الشفاء ، متكلين على الكثرة عملاً بالقول المشهور : الكثرة تغلب الشجاعة . وقد نسينا إخفاق الدواء في السابق ونسينا الحديث الشريف : لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين .

واستمررنا في الاستعمال شهرين ، ولكننا بقينا عند الحد الذي بلغناه في الاسبوع الاول ، مثلنا في ذلك مثل الشاب تظل قامته قابلة الطول حتى الخامسة والعشرين من العمر ثم لا تزداد سنتيمتراً واحداً بعد ذلك مهما تطاول وتمطّى . او مثل السيدة القصيرة القامة تلبس الحذاء العالي (الكعب) وتظل قامتها الحقيقية على حالها .

وسمعت في تلك الآونة باكتشاف دواء جديد في اميركا يدعى ستربتوميسين (Streptomycine) ، واستفاض مبشّري بهذا العلاج

في الحديث عن عجائب هذا الدواء فزعم انه يقيم الموتى ، جريا على تعبير النساء اذ يتحدثن عن فيلم سينمائي او (فسطان) او زيّ جديد فيقلن انه (يُجنّ) اي ان من يراه يصبح مجنوناً ولكنه كلام اجوف فلا الموتى يقومون ، ولا الجمال يورث الجنون

وعاودني الامل ، هذه الواحة الخضراء في بيداء الحياة ، وذلك السراب الذي يطيب للعطشان المتحرّق ان ينظر اليه ولو آلاً محضاً ، اذ يقول في نفسه من يدري فقد يكون الماء وراء السراب . وبدأت اكتب الى اصحابي في اميركا بحثاً عن الستربتوميسين . ومرت اشهر فجاءتني خمس قناني من اميركا عن يد صديقي ورفيق طفولتي الدكتور يوسف مقصود المقيم في فلنت ميشغن ، وكان الدواء لم يزل نادراً واستعملتها فلم تأت بنتيجة. فقلنا ننتظر ورود كميات كبيرة ، واتكلنا هذه المرة ايضاً على الكمية ، واشترينا في اوائل ايار سنة ١٩٤٦ خمسين قنينة او خمسين غراماً بمبلغ الفي ليرة لبنانية صرفناها في شهر ، وقد اتت ببعض التحسين كالبنسلين ولكن مالطه اين مالطه ؟ مالطه يوق افندم .

وبعد فلن اسهب الكلام وادخل في التفاصيل ، والحديث جد طويل ، والواقعات متشابهات خلال سنتين اي بين سنة ١٩٤٦ وسنة ١٩٤٨ ليس فيها بالنسبة الى القاريء جديد . اما بالنسبة إلي فقد تخللهما ألم يروح ويغدو وقلق دائم وتجريب ادوية ومقويات متنوعات . واستمرت الحال كذلك حتى اواسط تشرين الاول سنة

١٩٤٨ واذا بالصديد يزيد فلا يقتصر البلل على الضماد و (الشاش) بل يتجاوزه الى الفراش . وكنت على وشك اليأس من الوسائل البشرية فلجأت الى العناية الالهية . ولطالما لجأت الى الرحمن الرحيم في السنوات الخالية ، ولكن الاعجوبة مخالفة للنظام الطبيعي ، يمنّ بها الله سبحانه على من يشاء ويحرمها من يشاء ، لحكمة يجهلها العقل المتناهي ، فيقف على شاطىء اللانهاية ، وقفة الصبي القاصر على ساحل الخضم المجهول ، يرقب السفينة ببصره مادامت قريبة من الشاطىء ، فاذا تطاول المدى وتضاءل الافق ، ندّ الشراع عن مقدور العين وتوارى المركب واغمض الصبي عينيه وهو في شبه دوار وعاد من حيث جاء .

وكنت قد سمعت براهب من الزهّاد الصلاّح قبضه الله اليه في اواسط القرن التاسع عشر . وقد عرضت جثته في دير كفيفان (البترون) متمردة على البلى . وقد امرت روما بدفنها منذ عشرين سنة تقريباً ، وان لهذا الحرديني الصالح شفاعات وكرامات مثل رفيقيه (شربل) و (رفقة) .

وقد لفت نظري بصورة خاصة ما كتبه صديقي الاديب ، المفكر العريض الصيت والأثر ، امين الريحاني في كتابه (قلب لبنان) عن هؤلاء الطوباويين الثلاثة . واعجبني من النابغة اللبناني تحمسّه لوطنه وعتبه على السلطات الدينية الاجنبية لاهمالها امر القديسين الوطنيين ، ومثل هذه الشؤون آخر ما يعني الريحاني ،

ولكن اميناً كان مخلصاً يغضب للكرامة وينتصر لما يراه حقــاً فيدفع بالقنبلة ولا يهمه اين تقع شظاياها .

وأخذت الى الدير وقد اثر بي سؤ حالة الطريق وارتجــاج السيارة في الأخاديد . ومما زاد في المصيبة إجلاسي على كرسي مستقيم الظهر لتمكيني من الدخول الى مقام (الحرديني) . وعندما ادخلت الى بهو الدير كان الوجع قــد بلغ الذروة ولكن ذلك لم يزحزح من ايماني بالله وقدرة اوليائه مقدار شعرة .

والقيت في البهو على فراش موقت وحولي اصدقــائي من الرهبان ، وفيهم صديقي الرئيس الجليل الأب اتناسيوس مطر وكان حديث عهد بحادث سيارة رضّه رضّاً . وقد تحامل على ألمه ليرحب بي ، وصديقي الآخر الأب يوسف الصوراتي المتحــامل على عكازين لانكسار فخذه قبل ذلك بسنتين . وبكى لما رآني وقد عرفني سنة ١٩٣٣ في زحله ، ولم اكن أحمل يومئــذ على الأكف بل اتنقل في سهول البقاع صياداً لا يبالي بعرض السهل وطول المدى

وازداد شجني لمــا رايت الصوراتي الزجلي الحــاضر النكتة ، المتوثب البديهة . وذكرت سهراتنا في زحله في غرفة الشتاء التي تحبب اليك عويل الرياح ، واشتداد الزمهرير ، وانت آمن ناعم بمقعد وثير ونار تؤج ، وحطب يقضقض ، وسميرك الراهب يوسل النادرة تتمة لما قبلها وتمهيداً لما يليها ، فأذناك من الغبطة في مزدحم ، ووجهك من الانبساط في صفحة مشرقة .

وجاء لبنان في اوائل تشرين سنة ١٩٤٨ أحد اعلام الطب الجراحيّ في فرنسا ، وقد استدعي بالطائرة لمعالجــة مريض مثــلي مصاب بناسور في العمود الفقاري ، على فارق بيننا من جهة الثروة. والمال يجتلب الطبيب من اقصى الارض ويحمله على مناكب الاثير

ولكن المال لم يعصم الغني المسكين فمات – رحمه الله – مأسوفاً على شبابه بعد نقله الى باريس في طائرة « فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ! الأعراف ٣٤ . »

واستدعيت الاستاذ الطبيب الفرنسي الى مستشفى الروم بعــد اخذ صور جديدة ، وفي النية ان اسلم جسدي لمبضعه وروحي لله ، فأكون قد بلغت العملية العشرين ودنيا اليقين . ولكن صاحبنا بعد مشاورة مع الدكتور بدر أعلم اهلي ان مبلغ الخطر يربي على الثمانين في المئة وان من الخير لي ان استعمل علاجاً توأماً في مدى ستة اشهر ، وذاك ان امزج (البنسلين بالستربتوميسين) وانهما يتعاونان على قتل الميكروب الدفين ، فما يتعذر على اليــد اليسرى تناله اليمين ، باعتبار الجراثيم فئتين ايجابية يفعل فيهــا البنسلين وسلبية يفعل فيها الستربتوميسين ، اذن فــلا مفرّ ولا نجاة للميكروب اللعين . والبرهـــان ذو حدين موافقين لقواعد القياس ، فمن لم تكن حبلى بذكر فهي حبلى بأنثى ، ولكن رفيقي الميكروب كان من نوع الخنثى اي غــير داخلة في الحساب . وجلبنا الدواء بالجملة ، ودفعنــا الثمن بالالوف ، وملأنا البرّاد والخزائن فكانت التعبئة هذه المرة اكثر من كل ما سبق ، اذ

شهرناها حرباً شعواء ، ننزل فيها الى الجبهة كل يوم بنصف مليون من وحدات البنسلين و(جرام) من الستربتوميسين . وبدأ التحسين فهلّل اصحابي وما اكثر المتفائلين ، فخالفتهم في الرأي لان المؤمن اذا لدغ من جحر مرتين كان عديم الفطنة فاذا لدغ ثلاثا كان مغفّلاً .

وضربت لاصحابي مثلا ردعاً لهم عن الامعان في التفاؤل ، مؤداه ان ملكاً اصيب بمرض وبيل ، فأخذ طبيبه يطمئن الشعب كل يوم ببيان جديد ، زاعماً ان الملك في طور الشفاء وتحسّن مستمر . ومات الملك بعد ايام فقال احد الظرفاء : اظن ان جلالته مات من كثرة التحسينات . وكنا نستعمل الابر بمعدل ثماني مرات في الأربع وعشرين ساعة فيكون مجموعها في ١٨٠ يوماً ألفاً واربع مئة واربعين . واحسب ان مجموع الوخزات التي نالتني منذ سنة ١٩٣٦ حتى اليوم من عضلية ووريدية وجلدية يربي على عشرة آلاف وخزة وطالما ذكرت قول ابي الطيب :

تكسرت النصال على النصال

وقول المعرّي :

رب قبر قد صار قبراً مراراً
ضاحكٍ من تزاحم الأضداد

ولقد عادت الابرة الى مغرزها الاول مئات المرات .

* ليالي المريض *

في الاساطير ان راهبا كان يقرأ التوراة فبلغ هذه العبارة « الف سنة في عينيك يا رب مثل امس الذي عبر » فرأى في هذا القول غلوّا كبيراً وتطرّق الى ذهنه الشك العميق بسلامة عقل داود ، لان الالف سنة تتسع لأعمار عشرة من الرجال ، لو قُدّر لكل منهم ان يعيش مئة سنة .

ألف سنة كمية من الزمن تبهظ التأريخ نفسه اذ تدول فيها الدول وتنقلب الارض رأسا لعقب ، فربما غارت في المحيط جزر بساكنيها ، او انبثقت من الاعماق جزر اخرى فكيف تكون الالف سنة كأمس الدابر .

وبينما كان الراهب غريقاً في التأمل مرت به قبّرة وسقطت غير بعيدة عنه . فلحق بها يحاول اخذها وكانت كلما اوشك ان يقبض عليها تفرّ منه قليلاً بحيث لا ينقطع امله في ادراكها . وظلت تخاتله وهو جادّ في طلبها حتى ابتعد عن الدير مسافة شاسعة ، والعصفورة لا تزال تُطمعه فيها ، فتارة تبدو مهيضة الجناح ، وطوراً تتحامل على نفسها كأنها في الزحّافات . وما زال هذا دأبها حتى اعيا الراهب واختفت القبّرة . وانقلب

الكاهن عائداً الى ديره وقد ملّ وأخفق وشاع في أعصابه الخور ، وما صدّق أن بلغ باب الدير حتى أخذ يدقه دقاً عنيفاً ، وقد فعل فيه الجوع فعله حتى توّهم حجارة السور خبزاً ، ورائحة الشواء المنبعثة من المطبخ إداماً ، فصاح به صائح من داخل من الطارق في هذا الليل ؟ فقال افتح سألتك بالمسيح أن تفعل أنا فلان .

ولشدّ ما كانت دهشته حين استدار المصراع على ذاته بحركة آلية لا عهد له بها من قبل ، واذا به يواجه بوّاباً عملاقاً ، وكان يترقب ظهور الأخ يوسف الهزيل الجسم القصير القامة ، وأنكر كل منهما صاحبه . وقصارى القول إنه جيء بالراهب الغريب الى الرئيس ، فاستوضحه أمره فقص عليه الخبر . ورُوجعت سجلات الدير في اليوم التالي ، فوجد في احدى صفحاتها — وقد عاثت بجوانبها الأرَضة (العثّ) ما هذا نصه : خرج القس يوحنا في هذا الصباح من الدير ولم يرجع .

ولكن الفارق بين اليومين ألف سنة . وإنما اوردت هذه الأسطورة تأييداً لزعم القائلين بأن الزمان غير قائم بنفسه ، وقد حدده الأقدمون بأنه مقدار الحركة ، وربطه بعضهم بالحركات الدورية للكواكب ، ولا مجال هنا لعرض آراء المفكرين القُدامى والمحدثين في الزمان ، ولكن بحسبك ان تعلم أن طوله وقصره بالنسبة الى الانسان ، يتبع الحالات النفسية ، فالساعة التي تصرفها في الحان ، بين كؤوس وألحان ، وسمر وندمان هي غير

الساعة التي تصرفها في الوجع والأنين .

ويخيل اليك ان الزمن بطيء مشلول وأنت في عنفوان الشباب ، ولكنك بعد الأربعين تحسبه يمر مرّ السحاب .

وليس أصدق من الشعراء في تقدير الزمن فهذا شاعر يقول

شكونا الى احبابنا طول ليلنا
فقالوا لنا ما اقصر الليل عندنا

وهذا المتنبي يقول :

وسألنا ونحن أدرى بنجد
أطويلٌ طريقنا أم يطول
وكثير من الكلام اشتياق
وكثير من رده تعليل

وهذا امرؤ القيس يقول :

فيا لك من ليل كان نجومه
بأمراس كتان الى صمّ جندل

وفي الليل تختلّ مقاييس الزمن ، وقد يخيل الى النائم انه استمر يحلم ساعات طوالاً على حين أن أطول الأحلام لا يتجاوز بضع دقائق . ويعترض معترض بأن ذلك عمل المخيلة المتفلتة من رقابة العقل .

ولكن موازين العقل نفسها تتبدل في الليل . قلت ان بعض المفكرين قاسوا الزمان بالحركة الكونية ، ولكن المريض المتقلب

على أحر من الجمر ، وأحدّ من الشوك ، يشعُر بانعدام الحركة فلا يكون ليله في الزمن بل في الأبــدية . وحالة المريض المتقلب ولو على النار ، أيسر من حالة المقعد المشلول عن الحركة ، إلاّ ان تقلبه يد رفيقة كما تقلب صناديق الزجاج وقد كتب عليها (سريع العطب) .

ولقد مرت علي ثلاثة آلاف من هــذه الليالي الدهم ، وكل واحدة منها أبدٌ كامل ، بعضها جحيم وبعضها مطهر . اما ليالي النعيم بينها فتلك التي يكون فيها الألم خفيفاً ، فأستيقظ في اثنائهـــا مرتين او ثلاث لتغيير ملابسي المغمّسة بعرق الوهن وهـذا معنى قولي في ختام ملحمتي عيد الغدير .

فتعجّب لسابح في جحيم صكه الخطب زورقاً بشريا

بعد هذا ارجو ان يخجل رفات الشاعر القائل :

يا ليـل الصبّ متى غـده أقيام الساعـة موعـــده

فهناك حيوان يستيقظ وهنا انسان يموت .

ومن الامور المسلّمة ان الالم في الليل اشد منه في النهار . ولن تجد في الطب الصرف تأويلًا كافياً لهذا الفارق لان مبعثه نفساني محض : ذلك ان في النهار من شؤون الحيــاة ما يصرف العليل عن نفسه صرفاً جزئياً ، فضلًا عمــا في الضوء من أنس ، ذلك ان للعين عالمها الذي تنعم فيه فهي أشرف الحواس وأعمّها. وقد حللهــا القديس اغوسطينوس في اعترافاته وأرجــع ، اليها كل

شهوة فقال : ان الادراك الخاص بالعين هو النظر . ولكننا نستخدم هذا اللفظ الاخير في ما يتعلق ببقية الحواس أيضاً حين نريد استخدامها في المعرفة . فنحن لا نقول اسمع كيف يلمع ، او شمّ كيف يضيء ، او ذق كيف ينـير ، او المس كيف يشِعّ ، ولكننا نقول ليس فقط انظر كيـف يلمع ، وهو شيء خاص بالعين حتماً ، بل نقول : انظر ايّ انسجام هذا ، او اية رائحــــة هذه ، او ايّ طعم ذاك ، او اية صلابة هاتيـــك » (عبدالرحمن بدوي شبنجلر صفحة ١٧٥)

لذلك عرّفوا السماء والاشياء السماوية بأنهــا نور ، وعرفوا جهنم بأن نارها مظلمة

وانما العتمة تعزل المريض عن العــالم الخــارجي فينطوي على نفسه ، وتتوثق العلاقة بينه وبين أحاسيسـه حتى ليسمع دقـات قلبه ، ويقترب وريده من اذنه ، وتزدوج شخصيتـه فيكون الشاهد والمحكوم عليه في آن واحد . وتتيه مشاعره في سُدُف الظلمة فتلـّون بلونها

لذلك تراه يفرّ من الوحدة والظلام لانه يعلم سلفاً ان الألم سيحول بينه وبين الرقاد ، هذا الموت الهنيء الموقت ، لذلك كنت ارجىء انصراف اصحابي المحبين لارجىء موعد عزلتي . فأحدثهم الاحاديث موصولةً ، فاذا انصرفوا انصرفت الى الكتاب آنس برفقة اعلام القلم وبُناة الحضـــارة حتى يعشو بصري ، وتغمرني

الظلمة ، فأستعين بالله على البلوى . ولا حول ولا قوة إلا بالله

هذه الألفاظ وأخواتها من مثل إنّا لله وإنّا اليه راجعون ، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ، يرددها الوف الناس كل يوم حتى لا يدركون معناها . وهي في الحقيقة معصومة من الابتذال بما تنطوي عليه من حكمة ازلية . والحكمة تظل في جدّة دائمة . واول فضائل الاسلام الايمان ، بل الدين الاسلامي كله في لفظة (إسلام) ومعناها التسليم لله الرحمن الرحيم والثقة به جلّ وتعالى

اجل لا حول ولا قوة الا بالله . وفي القرآن عظات في الصبر وآيات منها :

« واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة إلا على الخاشعين (سورة البقرة ٤٥)

« الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا اليه راجعون ، اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون ١٥٦ و ١٥٧

ويقول اغسطينوس لا راحة الا بالله شاعراً بضُعف الانسان وقلقه ، وانما القلق ركن الفلسفة الوجودية سواء في ذلك هيدجر وكيركجورد . وسارتر ومارسل .

أجل لا حول ولا قوة ولا راحة إلا بالله ، ولا يغرّنك ما

بك من قوة جسدية ايها الضارب الأرض بقدمه كانك تنذرها بنمرود جديد : ولقد كنت في مطلع شبابي مثلك مزهوّاً بنفسي ، وطوّح بي الغرور فقلت في قصيدة لي

وكأن ربك قد برى   عمد السما لمّا براني

أستغفرك اللهم وأتوب اليك توبة نصوحاً ، فها هو العمود المسكين يصبح أوهى من سنبلة عجفاء في ريح صرصر .

تالله ما أضعف الانسان ! هذا فردريك نيتشه القائل بالقوة والانسان الأعلى (السوبرمن) ، نيتشه الذي يغار من يسوع فيريد أن يستقوي يموت مريضاً بين (المجاذيب)

وهذا نبّوليون الاول الذي لعب بالقارة الأوروبية لعب الرياضي بكرة القدم يموت يائساً في جزيرة بائسة .

ولا تغرّنك فلسفة الملحدين فهؤلاء الملحدون أنفسهم كانوا في أعماق أعماقهم مؤمنين ، ولكنها الشهوات أعمت قلوبهم وعقولهم وأهابت بهم الكبرياء فأزعجتهم عن السَمْت ، فراحوا يبحثون عن فردوس أرضي فكان مثلهم مثل الظمآن يدير ظهره للنبع السخيّ ويضرب في البيداء فلا يَرِدُ إلاّ السراب . وهو كلما ابتعد عن النبع ازداد عطشاً فشارف على الموت ظماء . ولو أحسن الاصغاء لسمع النهر يهدر في صدره فليس الله في السموات

متربّعاً على عرش كما يتربّع الملك الجبار ولكنه في قلب الانسان ، لو كان الانسان سميعاً

في هذه الليالي الراعبة ، ليالي المريض الذي تتقطع بـه أسباب الأمل ، ومن خلال هذه الظلمات الرهيبة يشعّ في بصيرته نور الله فلا يرى مفزعاً إلا اليه والى من تراه يلجأ ؟ أإلى الطب ؟ وان الطب لأعجز من أن يشفي طفاحاً في الجلد أو أن يعيد شعرة الى رأس الأصلع ، وان يرجع الوسن الى الجفون التي ودّعها النوم فلا تلتقي إلا عن طريق السهو او الاكراه .

ويسألون الساهد كيف أصبح ، وهو في الحقيقة لم يصبح لانه مُؤرّق أخذه الدُوار فها هي الغرفة تدور على ألف محور ومحور.

* المخدّر *

قبل أن أحدّثك عن شعور المريض بالمخدّر – ولي من الخمس عشرة عملية التي خُدّرت فيها تخديراً عاماً ما يوليني حق الالمام بهذا الموضوع – أستميحك عفواً لأمهّد للبحث بكلمة عن الذاكرة والزمان .

أول من أثار مشكلة الاستمرار (Durée) في الزمن من الفلاسفة المعاصرين هو الفيلسوف هنري برغسون ، فكانت هذه النقطة ركناً أساسياً في البرغسونية . وأحسب أن أول من أثار القضية في فجر التأريخ هو الفيلسوف اليوناني هراكليت . وقد تنبّه لهذه النقطة القديس أوغسطينوس ثم مرّ بها بعض المفكرين مراً سريعاً . أما برغسون فقد حمل لواءها ، وكان لهذا اللواء ظل مديد ، فالزمن – وحياة الانسان لا تكون إلا في الزمن – أشبه الأشياء بنهر جارٍ موصول ، لا توقّف فيها ولا انقطاع لأن الحركة أساس الكون فهي مستمرة أبداً ، واللحظات متداخلة لا مضافة ولا متفرقة . وانما العقل هو الذي يقسم ويجمّد ، ولا تمرّ لحظة مشابهة لأختها كما أنه لا تمرّ في النهر النقطة الواحدة مرتين . ويترتب على ذلك أن الأنسان موصول الماضي بالحاضر

والمستقبل ، وما هذه الأزمنة الثلاثة إلا تقسيم العقل . وإن حياتنا كلّها يسجّلها الوعي وتستوعبها الذاكرة ، لا تفلت منها شيئاً ، ولكنها تتمسك بما تحسبه مفيداً نافعاً وتودع الباقي في القبو المظلم ، حيث ينام ولا يتلاشى بل يستيقظ إمّا تلبية لنداء أو استجابة لظرف خاص . ومثّل برغسون لذلك بأن بعض الغرقى الذين سقطوا الى أعماق اليمّ ثم انتشلوا فعادوا الى الحياة رأوا في هذه اللحظة الرهيبة ، أي أثناء هبوطهم الى الغور قسماً كبيراً من ماضيهم او ماضيهم كله ، بما يشتمل عليه من حوادث طُويت ، وتوافه خفيت عن صاحبها سنين عديدة فبدت واضحة في تلك اللحظة كما تطفو الزوارق الغريقة على صفحة اليمّ إذا يسّر الله لها الآلة التي تنتشلها من اعماق اللجج . وممّن خالف برغسون في نظريته هذه الدكتور عبدالرحمن بدوي فأورد في كتابه النفيس « الزمان الوجودي » (صفحة ٢١٥و٢١٦) ما يلي :

« **يقول** « جانيه » رداً على برغسون « إن برغسون يزعم عادة بأن الرجل المنعزل ذو ذاكرة وانا لست من هذا الرأي فالرجل المتوحد ليست له كاية يختزن فيها كل ما مرّ به من أحداث وما عاناه من احساس وإنما الذاكرة ملكة متأخرة تنشأ مع الحياة الاجتماعية من اجل تكييف العمل ، والأحداث لا تسجّل فيها على نحو خط مستمر وتيّار متصل بل على اساس إطارات عقلية او اجتماعية تعطيها مدلولاً واتجاهاً خاصاً » .

ذلك نقد جانيه ، وهو نقد يتجه إلى إثبات أن الذاكرة

لا تعطينا هذه الصورة لتيار متصل بالشعور ، يجري في الزمان من الماضي الى الحاضر ، بل على العكس من ذلك تمثل لنا في الزمان انقطاعات وانفصالاً ، والواقع ان تصوير برغسون للذاكرة لا يتفق في شيء مع ما تدل عليه كل الظواهر المعلقة بالذاكرة سواء في احوالها العادية أو في احوالها المرضية . ولا دليل مطلقاً على وجود ذكرى خالصة أي تذكر عارٍ عن احداث معينة محدودة . وبالتالي لا دليل على وجود تيّار للشعور بالماضي يسير في خط واحد متصل وكأنه تذكر فوق كل التذكرات الجزئية المحدّدة ، بل كل ما لدينا ذكريات خاصة بأحداث معينة متفرقة ذات اتجاهات عدّة ، وإن جمعت بينها مع ذلك أحوال واحدة فأن هذا الجمع لا اصل له إلاّ ردّها الى مصدر واحد تنتسب إليه هو شخص اوذات معينة . ولا يدلّ هذا الجمع إطلاقاً على ان ثمة تياراً متصلاً على النحو الذي تصوّر عليه برغسون الذاكرة الخالصة . ولعلنا هنا بأزاء تجريد أجوف تخيله برغسون : وفي وسعنا ان نفسر السر في قول برغسون به بلا عناء . فحقيقة الأمر ان برغسون قد جعل الذاكرة هي الروح وتصوّر الروح على انها المدّة او الزمان المتصل المستمر ، ثم صوّر الذاكرة على اساس هذا التصوير للزمان ، فكأن تصويره للذاكرة إذن ليس الأصل في تصويره الزمان بل بالعكس ، ولذا نرى نظريته في الذاكرة لا تقوم مباشرة على الوقائع النفسية بل يحاول فيها إخضاع هذه لنظريته في المدّة . فواقعة اللاشعور

لا تدلنا مطلقاً على ان كل الاحداث الماضية تسجل في الذاكرة ، ولسبب او لآخر استبعدناها حاضراً عن الشعور . وليس كل ما في الذاكرة محدداً بزمان معين في الماضي ، فأغلب ما فيها من معارف لا ندري متى واين حصلناه خصوصاً اللغة ، وهذا يدل على ان مسألة التحديد الزماني في الذكريات مسألة ثانوية ، واذا كانت كذلك فالماضي الذي تصوّره الذاكرة ليس محدداً وكأنه خطّ من الزمان مستمرّ معينة اجزاؤه بعضها بالنسبة الى بعض »

وما كنت لأقف موقف الحكَم من هـذه الآراء اولاً لقصر باعي في الفلسفة ، وثانياً لأن ذلك خروج عن الموضوع ولكنني اقتصر على سرد واقعتين :

أما الاولى فمؤداها اني كنت مستنطق لبنان الشمالي سنة ١٩٣٥ ، ففرق احد المراكب الصغيرة التي تنقل التراب (السيمنتو) من معمل شكّا . وكان في الغرقى نفر من العمال مات بعضهم ورجع بعضهم عن اعتاب الابدية ، وكانت القضية لديّ قيد التحقيق . وقد استجوبت هؤلاء العائدين الى الحياة بعد توديعها موقتـاً . وتجاوزت الناحية القانونية في الاستجواب الى النقطة البسيكولوجية . فسألتهم عن شعورهم الصميم عند هبوطهم الى الهـاوية ، فاجـابني بعضهم بانه لمح - قبيل الغيبوبة - قسماً كبيراً من ماضيه يكرّ بسرعة هائلة في تلك الهنيهة الرهيبـة . ومن البديهي ان هؤلاء الأميّين لم يقولو ذلك مسايرة لبرغسون او تأثراً برأيه .

واما الثانية فهي من نتائج المخدر الـ (Ether) وقد حان لنا ان نعود بك اليه ، ابعده الله عنك وعمن تحب .

معلوم ان كمية المخدر التي تعطى لتنويم المرضى متفاوتة المقدار تبعاً لحالة المريض ، وتتراوح الآلة المسجلة بين الصفر والثانية . واكثر المرضى ينامون عنـد بلوغ المنوّم الدرجـة الرابعـة في الاعطاء ، ويشذ بعضهم عن هذه القاعدة وعلى الاخص المدمنون على المسكرات .

ولما ارتفعت الكلفة بيني وبين (البنج) بعد العملية الثالثـة قررت ان اراقب مفاعيله فأكون الخابر والمختبر والقاضي والمحكوم عليه في آن واحد .

ولاحظت انـه عندما يبدأ الجسم بالتخـدر يحس المريض بالاسترخاء فيشعر ان جسمه كان متقلصاً منكمشاً ثم تهدّل في لحظة والتصق ظهره بالمشرحة ، متوهماً انه كان بينه وبينهـا فاصل بعيد . ويبدأ الطنين في الأذنين فتسمعان الأصوات مفخمـة . ولقد كنت اسمع في هذه اللحظة تساقط الماء من المـاسورة (الحنفية) - بينا كان الطبيب يغسل يديه - كتساقط الشلال هادراً في الهاوية . اما حدقة العين فتتراءى لها الأمواج الصفراء والخضراء وتكون الغلبة في النهاية للأمواج السوداء وهي بدء الغيبوبة . ولقد مرّنت ارادتي على المقاومة - برغم التنفس السريع

الذي يستعجل النوم – حتى كنت أبلغ السادسة واعياً فاستجمع قوة اللسان الذي يأخذه الشلل في الخامسة ، لأقول للمنوّم اني بلغت الحد الاقصى من الملاحظة . ثم تكتنفني غمامة سوداء فانام في لحظة خاطفة بعد بلوغي الدرجة السادسة ، ولكنني كنت في هذه اللحظة التي لا تجاوز بضع ثوان اشهد صفحة واسعة من ماضيّ ، فيها الحادث الخطير والتافه اليسير المنسيّ الذي يأبى أن يذكره انسان يفكر بالله وبالاستغفار ، وهو لا يدري أيفتح عينيه بعد أم هي الغفوة الأخيرة . ولقد شهدت هذا الفلم السينمائي الخاطف منذ العملية الأولى وقبل اطّلاعي نظرية برغسون وسواه في الاستمرار والذاكرة .

ومما يدلك على سهر الذاكرة وحرصها على الالتقاط اني كنت أسمع أثناء العملية – عندما يخفف المنوم درجة البنج الى الثانية والثالثة – حركة شبيهة بصوت المنشار في هبوطه وصعوده ، وما هي إلا صدى الشخير .

وكنت استفيق وانا في حالة يرثى لها من الضنك والاعياء وتهيّج المعدة للقيء خصوصاً بعد العمليات التي تتجاوز التسعين دقيقة . وقد استهلكت فيها كمية كبرى من المخدر .

وكان اشد آلامي في اليوم التالي العطش المذيب . وقد جف فمي واستعر استعار الرمضاء في يوم قائظ ، فأعمد حينئذ الى الايحاء الذاتي (Autosuggestion) واستعين بالمخيلة فتارة استعرض

ما يثير الريق كالليمون الحامض والخل وما شاكلها ، وطوراً الينابيع الغزيرة الصافية الفوّارة التي تشهدها متفجرة من الارض فكأنك تشهد مولدها . مثال ذلك ينابيع (سير) و(رشعين) و(الباروك) . وقد اشتد بي العطش ذات يوم من تموز – واكثر العمليات كانت في أبان الصيف – فرجوت من الممرضة أن تزحزح سريري قليلاً لأرى البحر من النافذة فأتعزّى بمنظر الماء ولو ملحاً أجاجاً .

قيل ان احد الملوك ابتنى قصراً فخماً في حديقة لا تختلف عن صفة الجنة إلا انها في الأرض . فتنافست الحاشية في اطراء هذه الأبهة الا حكيماً لزم الصمت . فسأله مولاه في ذلك فقال يا مولاي هب انك عطشت حتى اشرفت على التلف ، افما كنت تفتدي حياتك فتعطي هذا القصر وما حوله مقابل شربة ماء ؟ قال الملك بلى . قال الحكيم فاذا استعصت هذه الشربة وانحصرت بولاً حتى قاربت الهلاك افما كنت تعمل على إخراجها ولو انفقت في ذلك القصر والحديقة قال الملك بلى . قال الحكيم إذن فقيمتها شربة وبولة .

قيل فاعتبر الملك وزهد في الدنيا .

وكنت حينئذ أغبط رعاة المعزى في لبنان اذ يعطشون فيرتمون على العيون المتحلّبة من حنايا الجبال صافية كعين الديك ، فيكرعون على ما تشتهي انفسهم من ذلك الثلج الذائب ،

ويطفرون بعد ذلك على الصخور بُسوق مجدولة ، ويعملون بسواعد مفتولة ، ثم يقيلون في ظل سنديانة تفيأت ظلها العصور ، او فيء صنوبرة طوت السنين في اللباب والقشور ، حتى اذا همس النسيم في الغصون فاشرأبت الأوراق الخضر ، والسنابل الهِيف ، تحركت الشبّابة في يد الراعي وكان للأدواح عرس يساهم فيـــه البلبل والحسّون ، ويطغى فيه الفتون على الفتون .

فيا ايها الرعاة الأصحاء لا تحسدوا احداً انكم لأسعد الأحياء لو أدركتم معنى العافية .

* عقلية المَريض *

في القول المأثور ان العقل السليم في الجسم السليم . وهـــذا النص ينطوي على كثير من الحقيقة ولكنه لا يجري على إطلاقه ، فاذا استخلصت من معكوس هذا المبدأ ان المريض يكون مختل الشعور فانك لعلى ضلال مبين . — مـا لم يكن داؤه في باب الامراض العقلية ، حينئذ يكون المريض مجنونا —

وقد يكون المرض او العاهـــة الجسدية من بواعث العبقرية . وليس ادل على ذلك من سفر ايوب ، وفلسفـة المعري (رهين المحبسين) وشعر بشار ابن برد ، وفِـكـر باسكال ، ورواقية الفرد دى فيني — أشعر الرومنطيقيين على الاطلاق — وكل هؤلاء مرضى أو مشوّهون . ويمكنك ان تضيف الى هؤلاء المعذبـين هوراس وفرجيل وبترارك وسرفنتس ودوستوفسكي وملتون وادغار بو ونيتشه وملبرانش وبودلـير وسكارون ومـوليير والفونس دوده وأوغست كـومت وفلوبير وروسو وموســـه وفولتر وفرلين وسامان الى آخر الباب

ومما لا ريب فيه أن المرض يؤثر في أعصاب المريض ويبدّل

من نفسيته اذ النفس والجسد وحدة لا تنفصم . وقد اخطأ افلاطون اذ شبّه النفس بضيف مسكين نزل على الجسد ، وحسب الجسم قبراً للروح ، ومثّل للروح بالربان الذي يدير الدفة ، فالعلاقة بينهما أعمق من ذلك وأبعد . وكذلك أخطأ (ابيكتت) (Epictète) حيث عرّف الانسان بأنه روح تجرّ جثة . ولا تُسمى النفس وحدها انساناً ما لم تتحد بهذا الجسد ، بل منذ تنبثق منه انبثاقاً في الدقيقة الأولى من تكوينهما فلا يكون الجسم اناء فارغاً تملؤه النفس وتغدو قيّمة عليه ، أو مضافة اليه . بل اخطأ القائلون باتحاد النفس والجسد ، اذ لا يُوحّد الواحد ، فهما واحد في الخلق والحياة ، وواحداً يكونان في النعيم والعذاب . وهذه الوحدة هي السبب في تغيّر طباع المريض وتبدّل أطواره فاذا خارت أعصابه ، وتلاشت قواه ، وتلاقت عليه الهموم تقمّص عقلية خاصة وجب عليك أن تعامله على أساسها . والممرضات الراقيات يعرفن ذلك ولكن النبيهات جد قليلات اذا استثنيت خرّيجات الجامعة الاميركية . ومن المؤسف ان تكون أكثرية الممرضات في الدرك الأخير من الأمية والجهل حتى لتجد بين الخادمات أرقى منهن . أقول هذا منصفا ، تدويناً للحقيقة وبرغم شكري لبعض الأمّيات المخلصات .

وجهل الممرضة يفقدها الشعور بالواجب فتراها تجر نفسها الى العمل مكرهة ، وتنسى أن بين يديها حياة ضعيف معلق بخيط فوق هاوية الأبد ، وأن مهمتها اقدس المهات ، وانها مسؤولة عن تفريطها

بأرواح العباد .

فهذه واحدة منهن تفتح نافذة غرفة المريض فور عملية جراحية فيصاب المسكين بذات الرئة ويموت . وهذه ساهرة ليل تنام فيقضي الجريح نازفاً .

وها انا اورد على سبيل المثل قليلاً من كثير يدلّك على مغبة الجهل . فلقد اصبت بنزيف على اثر احدى العمليات التسع عشرة ، فرأى الطبيب درءاً للخطر استعمال بضع ليترات من المصل . ويقوم ذلك بتعليق انبوبة المصل التي يتراوح مضمونها بين النصف ليتر والليتر في عمود خشبي فينحدر السائل في انبوب مطاط (نبريش كاوتشوك) موصول بابرة تغمد في الوريد ، فاذا غفلت الممرضة عن نزع الابرة قبل فراغ الأنبوبة تماماً ، دخلت بحكم الضغط الجوي ، كمية من الهواء الى الوريد ، وهناك ما تعلم من سؤ مغبة . ولقد تداركت هذا الأمر أكثر من مرة . ومعلوم ان الشاش المستعمل في الضماد يطهر في مصهر (Autoclave) تبلغ درجة الحرارة فيه ١٤٠ درجة سنتيغراد . وقد رأيت بعيني ممرضة تدعى (Violette) — وليس بينها وبين البنفسجة من وجوه الشبه إلا لون معطفها — تحمل هذا الشاش على طبق معدني صغير فيه بعض الملاقط والأدوات الجراحية . وكانت الممرضة تحدث رفيقتها وتضحك ويتطاير من ريقها رذاذ يقع على الشاش والملاقط التي تستعمل بعد دقائق لتضميد جراحي فتأمل . وكنت قبل

اكتشاف البنسلين اعطى مقادير وافرة من (السيلفاميد) وفي هذه الحالة يترتب على المريض الامتناع عن بعض المآكل ، وعلى الاخص السمك ، ولكن الممرضة كانت تأتيني به يقيناً منها بأنه أكلة طيبة استحقها .

وافضل ما تزدان به الممرضة بعد العلم هو اللطف ، فاذا خلت المرأة من هذه الخاصة فماذا يبقى لها من عرش الانوثة وسلطانها .

وكانت إحداهن على جانب عظيم من الخشونة وقوة العضل ، فأفهمتها ان اعصاب المريض تقتضي النعومة ، والشعور الرهيف ، وحسن الذوق . ولما يئست من اصلاحها سميتها باسم الملاكم المشهور (دمبسي) .

اوردت هذه الامثال تدليلاً على مساوىء الجهل ولكن للممرضات بجانب هذه العيوب صفحات خالدات في سجل التضحية والصبر على المكاره ، والتمرّس بالمصاعب ، اجزل الله لهن الاجر والثواب . ولا يعادل جهل الممرضات إلا جهل العوّاد . فالمريض يغتبط بمشاهدة ذوي قرباه واصحابه وعارفيه ، شرط الا يبهظوا كاهله الضعيف بحمقهم وسؤ تصرفهم فيزداد عياء على عياء . ولقد شهدت المئات من هذه الفصيلة . فكان بعضهم يدخل غرفتي باكياً منتحباً ، ونظراً لضعف اعصابي من جهة ، وعملاً بسنة المحاكاة من

جهة ثانية ، كنت اتأثر بهذه المظاهر احياناً ، واحيانا اصرف المأساة الى مهزلة بما اسرد من النوادر .

ودخل علي احدهم ذات يوم فأنبأني بأني ازداد نحولا وشحوب وجه ، فأعلمته بأن الكذب مباح في هذه الحالة فكان عليه أن يشجعني فيوهمني بأني في تحسّن مستمر ، فأعلمني بأنه يتعذر عليه الكذب ، فقلت : حفظك الله ، أكذب عليّ هذه المرة وضع خطيئتك في عنقي .

واثقل ما لقيته من عوّادي الذين يُعدّون بالالوف ، كثرة الاسئلة والدخول في التفاصيل والتعليق على الشروح وإبداء الآراء السخيفة ، وخصوصا إذا كان الجليس محدود الفهم يفترق عن الحيوان بالدرجة لا بالنوع . وفي مدة إقامتي في المستشفيات وقد نيّفت على ست سنوات كنت معرّضا لاستقبال امثال هؤلاء الآتين لعيادة ذويهم من كل فجّ وصوب . وبينا كنت اطالع جريدة ذات يوم ، دخلت غرفتي سيدة كان نسيبها جاري في المستشفى ، فألقيت الجريدة من يدي واحتفيت بالسيدة الانيقة الهندام ، الرشيقة القوام ، الزخّارة الكلام ، وقد كلّفتني أن أقص عليها قصتي فاكتفيت بأن سردت وشلًا من بحر ولما قلت لها إن حرارتي بلغت عقيب العملية الواحدة والاربعين قالت : هوّن عليك فقد بلغت حرارة أخي الخامسة والاربعين . فأخذت الجريدة واستدرت شطر الحائط وانقطعت شهرزاد عن الكلام وانصرفت .

وزارني مرة وجيه كبير وكلّفني جريا على التقاليد المعروفة أن أحدثه عن مرضي – وكانت الاجوبة التي كررتها الوف المرات في الوف الايام توازي الاشغال الشاقة التي يحكم بها على المجرمين – فأجملت الجواب يقيناً مني بجهل صاحبنا ، اذ علمت أنه في اليوم السابق دخل غرفة جارتي فساءلها عما بها فقالت هي عملية جراحية ، وأغرقت في الضحك لما زاد صاحبنا : أهي عملية البروستات ؟

فعلى رسلكم ايها العوّاد ، حسب المريض آلامه

❖

* الدّجالون *

« دوا للحبيّ دوا للربيّ » .

بهذه العبارة كان « المغربي » ينبىء القرية أنه أتاها راكباً حصانه الهرم « الكديش » فيتنادى الأولاد ويكفّون عن اللعب ، ليلتفوا حول الدرويش مأخوذين بمنظر السبحات السوداء المعلقة في عنق الغريب كأذناب الأفاعي ، والخرج المتدليّ عن جِلال (الكديش) . ذلك أنه كان للمغربي شأن في ذلك الزمن ، فهو الطبيب المتجوّل الذي يحمل في خرجه دواء للأمراض كافة وفي جملتها السرطان نفسه . هذا ، فضلًا عن معرفته بالغيب ، فالخرج ينطوي على كتب عتيقة صفراء الورق ، قذرة الغلاف ، مقطّعة الأوصال . أما سطورها فتعاريج ورموز لا يدركها إلا الله والمغاربة ، يستثنى منها كتاب أبي معشر الفلكي المعروف بكتاب الأبراج ، فهو مطبوع مقروء وفيه اثنا عشر برجاً للرجال ومثلها للنساء . ولكل واحد من الأبراج حالاتٌ ثلاث . فأن لم تكن المرأة المبحوث عن مستقبلها شقراء فهي سمراء أو حنطية اللون ، طويلة أو قصيرة ، أو متوسطة القامة . وكذلك القول في الرجال وما ينتظرهم من الكنوز المرصودة ، وغالباً ما تكون في جوار بيوتهم فلا تنال إلا ببخور وقرابين تُقدم لملوك الجنّ . وفي الكتاب أبواب عديدة

تنبىء عن مستقبل زواج أو عودة غائب أو اكتشاف ضائع الى آخر الباب . وسبح الزمن شوطاً بين الصبوّة (١٩٠٩) والكهولة (١٩٤٠) . وكنت يومئذ في مستشفى الصنائع ، فجاء مغربي يعود أحد اصدقائه فأدخله صاحبه الى غرفتي وعرّفني بالمغربي المتحضّر ولنسمّه السيد يوسف مثلاً .

كان الرجل جندياً في الجيش الفرنسي أثناء الحرب الكونية الأولى ثم استوطن بيروت وتزوّج ورُزق أولاداً . وأكّد لي أن في استطاعته شفائي فإذا عجّلت عليّ في اللوم أيها القارىء واتهمتني بقصر النظر أحلتكَ على قصة الكاهن وأجيره إبرهيم الواردة في فصل « الصداقة » من هذا الكتاب . وأعلمني صاحبنا أنه لا يتقاضاني أجراً فحسبه من المرضى الذين يشفون على يده — وهم كثر — أن يترحّموا على أجداده الصالحين . قلت فليرحمنا الله وإياهم أجمعين . وجاءني في اليوم التالي بتسع برشامات ، وجازفت فأخذتها في ثلاثة أيام فلم تنفع ولم تضرّ . ولشدّ ما ضحكت من نفسي عندما توالت زيارات صديقي الجديد يوسف فسألته عن مضمون البرشامات — وكنت قد فتحت واحدة منها فوجدت فيها صمغاً زكي الرائحة — فأخبرني أنه نوع من البخور يطلع من شجرة مقدسة ، تقدست بملامسة ثياب عيسى إذ أن العذراء مريم كانت تغسل رداءه وتنشره على تلك الشجرة العجيبة . فسألته عمن أخذ الطب فقال إن في المغرب عائلات تتلقاه بالوراثة . ومختصر ذلك أنهم يجاورون جبلاً ضخماً ينشقّ مرتين في كل قرن

وينكشف عن مغارة هائلة (ذكرتني بمغارة كاليبسو في أوديسه هوميروس) يدخلها طلاب العلم بعد أن يتزودوا بمؤونة سنة كاملة ، ويلتحم الباب فور دخولهم حتى لا ترى له أثرا ثم يعود فينفتح من تلقاء نفسه في نهاية السنة . أما المغارة فاسمها مغارة دانيال النبي . وقد نُقشت على جدرانها علوم الأولين والآخرين ، فينسخ الطلاب المزوّدون بكميات هائلة من الورق كل ما يبغونه ، ويخرجون في نهاية العام وقد عمرت رؤوسهم بأسمى ما بلغه الفكر البشري .

وكان صاحبنا في الحقيقة أنيساً خيّراً يحمل الي الكتب الطبية التي يعتمدها بغية توسيع معارفي . وكان قد وقع في يدي وأنا فتى يافع أمثال هذه المجموعات من الخرافات والاوهام وضروب السحر وكتابة الحروز والاستنجاد بملوك الجان . وهم طوائف وفئات معروفة الاسماء والمفاعيل . والمتقاربون منهم في النسب يتقاربون حتماً في الأسماء . مثال ذلك عيطروش فيطروش كيلبوش طحبوش أو بيدران عيزران ميدران جودران إلى آخر هذه الأسماء الضخمة الفخمة .

وفي سنة ١٩٤٢ جاءني أحد أقاربي — بدون إنذار سابق — بدجال لبناني يزعم أنه يعتمد الطب العربي ، فتفرست في وجهه لعلّ فيه مشابه من ابن سينا ، أو سيماء من الرازي ، فإذا بي أرى عينين حمراوين ناتئتين كأنهما مصباحان رُكّزا على منعطف الطريق

انذاراً لسائقي السيارات بالخطر . ورأيت بين أجفانه عمصاً ورمصاً فأيقنت أنه مصاب بالتراخوما على الأقل . وكدت أقول له أيها الطبيب اشف نفسك . ولكنني أحببت أن أستمع إليه قليلاً فقال لي ان قضيتي جدّ بسيطة وإن النبات المعروف « بالطيّون » كفيل بلأم الجرح ، ولم نكن قد عرفنا يومئذ أن الداء في العظم . وحاول صاحبنا إقناعي بمعجزات « الطيّون » فقال إن في اللفظة تصحيفاً وأصلها « الطيّوب » أي الشافي من القروح والجروح ، وساعدته أنا على نفسي لسببين : أولهما شيوع التصحيف ومغالط الكتب (بسكون التاء) لخلوّ اللغة من التنقيط في العصور الغابرة ، وثانياً لاعتقادي بفوائد « اليخضور » وهو الـ (Chlorophyle) المنطوي على المادة الحيوية التي تجود بها الشمس . وقد قرأت مقالاً في مجلة المختار عن تجارب الكلوروفيل في الولايات المتحدة ونجاح بعضها في معالجة تعفّن الجراح والالتهابات الصدرية . وجرّبنا ماء « الطيّوب » المغلي ولكن الذنب كان ذنب العظم كما رأيت .

أما الدجال الثالث الذي عرفته سنة ١٩٤٢ فقد خدعني زيّه الفرنجي لأن صاحبنا كان قد صرف في فرنسا بضع سنين ، وعاد منها بلحية جزئية ، وجرائد فرنسية ، نشرت رسمه الكريم غير مقرون بذكر العجائب التي ادّعاها . وكان إذ يتكلم يحدثني كمن له سلطان ، ويدخل في الحديث بعض الألفاظ اللاتينية التي تذكّر بموليير إذ يتهكم بالأطباء . وكان هذا الدجال مفتناً بسلب المال

ولم تطل المعاملة بيننا لأن علاجه هيّج الجرح فارتفعت الحرارة الى أربعين ونصف فانصرف غير مشيّع بالاكرام .

ومر بي دجالون آخرون ولكنّ الحال لم تجاوز الحديث . وفي أواخر سنة ١٩٤٩ جاءني أحد أنسبائي بدجال يوناني الأصل زعم أنه أخذ الطب عن جده كما أن جدّه نقله عن اجداده ، وأن السلسلة الكريمة تتصل بأبقراط . ومما وصفه لي في المقوّيات أكل لحم عجل منقوع بالخلّ ، شرط ان يكون العجل الذبيح أسود اللون بالغاً من العمر خمس سنوات لا أقل يوماً ولا أكثر يوماً. قلت : أما اللون فسأرسل الى المجزر وفداً يتحقق من لون « أبتيس » ، وأما العمر فلم تبلغ المدنية بعد هذه الدرجة في الرقي لتضع سجلاً للمواليد من البقر . عافاك الله يا سليل السقراطيين . إن في لبنان ، مبعث الحضارة في الشرق العربي ، من لم يزل يؤرخ بالفصول فيقول ولدت بنتي يوم سقوط الثلج ، أو بالحوادث فيقول تزوج ابني يوم جاء الجراد ، وأنتَ تطالبنا بتأريخ مولد البقر حقاً إنه لتعنّت عظيم .

▲▲

* مرحلة التأليف *

كنت في الرابعة والثلاثين يوم ودّعت صفو العيش الى غير رجعة اي حين نكبني المرض سنة ١٩٣٦ وقد تهيأت للانتاج الأدبي ، اذ توفرت على كمية من العلم تمكنني من الزرع ، كما يفعل الحارث حين تجتمع لديه كمية من البذور ، قد تأتي بالثمر الصالح ، وقد تنبت قتاداً وهشيماً أو زؤاناً يخنق الحنطة . وكل معرفة نسبية اذا نظرت الى المطلق ، واني اليوم لأجهل مني بالأمس ، وسأكون غداً أجهل مني اليوم . ولن يدعي العلم والعبقرية إلا جاهل مطبق ، ولكني كنت يومذاك أعرف شيئاً على كل حال .

وقد تراءت لي الخطوط الكبرى فصممت على التوليد سواء أكان الجنين سقطا أم بشراً سوياً . ولكن المرض أطاح بهذه التصاميم ، وتهاوت براعم الدوحة في مهبّ العاصفة قبل أن تنعقد ثمراً .

وغلّ العذاب قلمي قرابة عشر سنين ، وقد ملأت الآلام ليلي ونهاري . وجع متقطّع وسهد متقطع ، وقلق دائم ، ولعلك تقول ان الألم يشحذ العزائم ، ويرهف الحس ، ويقوّي الروح على الجسد ، فتنطلق القبرّة مغرّدة في صباح ربيعيّ . وهو قول

صحيح من جهة فاسدٌ من جهة أخرى . أما صحته فعندما يكون الألم معنوياً ناجماً عن غرام مكبوت ، أو عن تبرّمٍ بجور جائر ، او يكون صدى لحزن وإملاق وما شاكل ذلك من الجراح النفسية .

أما فساده فعندما يكون مبعث الألم جسميّا . فان كنت متعنتاً وأبيت التصديق ، فحاول ايها الأديب المتعنت أن تنظم قصيدة بينما يكون طبيب الأسنان آخذاً في اقتلاع أضراسك ، فاذا افلحت فقد أحبطت حجتي كما احبط ديوجين حجة القائلين بتعذّر الحركة اذ نهض ومشى .

اذن فقد كان الانتاج متعذراً علي إلا يوم كان يهادنني الألم وقلّما كان يهادنني . والانتاج يتطلب صحواً في الدماغ وقلما كنت استشعر هذا الصحو ، اذ كانت الدورة الدموية تمتصّ بعض الصديد الذي يفرزه العظم ، فترتفع الحرارة ويغيم الدماغ ، سواء كثرت هذه الحرارة أم قلّت .

رسول خير

وكان في جملة عوّادي في المستشفى سنة ١٩٤٥ صديقي الأديب العالمي شارل قرم . وفي ظني ان التأريخ سيفسح لشارل بعد العمر الطويل صفحة عريضة في باب الخالدين ، وسيبقى المؤرخ في حيرة عندما يتناول هذه الشخصية الزاخرة بالصفات العلوية ، فيحار في أيها يقدم على أختيها الشاعر الملهم أم العالم ، أم المثاليّ الخيّر .

وسيباهي يومئذ هذا الجبل الأشم لبنان بابنه شارل الذي نشر أمجاده ، ونبش كنوزه فحلّى بها جيد الكون . ولا عجب فها هو التاريخ يعيد نفسه ، فكما ان أندية الفن وقصور الملوك في أوربا أحبّت لبنان من خلال ريشة أبيه داود في القرن التاسع عشر ، فكذلك عرف الغرب بل اللبنانيون أنفسهم هذا الوطن الجميل من شق يراع شارل في القرن العشرين . وسيبقى القرم ببقاء الزمن لانه أحب ولأن المحبة اعلى الدرجات في سلّم الخلود. واقترح علي شارل ان اكتب ، وكان آخر عهدي بالشعر يومذاك قصيدتي (حمدان البدوي) التي نظمتها سنة ١٩٣٧

فقاومت الاقتراح اذ رأيتني غريباً عن اليراع بعد ذلك الهجر الطويل . ولكن صاحبي الحّ وكان تأثيره بي تأثير المنوّم بالوسيط، فراودتني الفكرة وكان الألم المكبوت من زمن بعيد يغلغل في جوارحي . واستشعرت انه حان لهذا الأسير ان يطلّ على العالم الخارجي ولو من نافذة . وما ان زحزحت الأقفال عن مواضعها حتى فوجئت بالهواء الجديد يحطم النافذة والأقفال معاً . واذا بالقوافي تطنّ في اذني وتتجاوب أضلاعي تجاوب الصدى المتكسر على احناء الكهوف . وفي هذه الغمرة من الدمع نبتت قصيدتي (ألم) ومقالتي (بين ايوب وبيني) .

وكنت أشعر وانا أخطها أن قلمي مارج من نار أغمسه في قلبي فأسمع له نشيشاً . ولو قُدّر للقرطاس أن يتلقى هذه المشاعر كما هي

لرأيته صبيغاً بالدم الفائر ، مليئاً بالاشلاء ، لما سقط في هذه المعارك الباطنة من القتلى . ولكن لغات الأرض جميعاً تعجز عن تجسيد الشعور . فان كنت على غير هذا الرأي فصف لي – حفظك الله – وداع أمّ لابنها الوحيد المقبل على الموت ، فان استطعت التعبير التام عما تختلج به شفتاها في تلك الهنيهة فأنت فوق البشر والملائكة ، واليك المقالة ، ولا يحسبنّ أحد اني حاولت الانتقاص من مكانة أيوب الصدّيق فهو في الأولياء وانا في الخطأة المستحقي العذاب . ولكنه البيان يجيز للكاتب من أساليب المطايبة ، ما يجيز للشاعر من صرف ما لا ينصرف .

* بين أيوب وبيني *

أيوب يا ملتقى الأمثال في الصبر الجميـل ، ومحطّ الخيـال في تجسيد الألم ، انت أول ما يجري به القلم البديع حين ينغمس كرّة في مرارة العيش ، وكرّة أخرى في دمِ الشهداء فيتقطر عـلى القرطاس خضيباً ، وتغصّ الصفحات الطوال بالدمع حتى لتحسبها عيون الثكالى في المآتم . بل انت اول ما تعبر اليـه الذاكرة خلل التأريخ فتلوي القرون الاربعين لتقرّ تحت عرشِ البؤس الذي تبوأته ، بيدك صولجانه ، واليك انتهى سلطانه ، فاذا اشتـد الخطب على البائس وعبّست في وجهه الدنيا فغدت أضيق من عين البخيل هرع اليك ، وتفيأ علمـك ، وتوسّل الى الله بك فصاح « يا صبر أيوب صبرّني »

مهو يا ايوب إن هي إلاّ جولة قلم فينهـار العرش وينطوي العلَم وينتهي الامر .

اما انت فقبل ان يغشاك ليل العذاب شرّفـك الله في جلسة سماوية بجميل الذكر ، وجعلك مدار الحديث ، وخذل الشيطان فرفع وجهك ، وانبرى للدفاع عنك ، فمـاذا كنت تخشى بعـد ذلك وهو سبحانه الوليّ الحاكم وله الامر من قبل ومن بعـد: فاذا

هزتك شماله هزة تصدّعت لها أعصابك عطفت عليك يمينـه بالرفق ، واخذتكَ بالحنان . وكنت قبـل يوم الروع قـد متّعت النفس بمُتَعٍ لو متّ بعدها لمـا فاتك شيء من الطيبات . ألم يقـل الشيطان عندما جادل الله فيك ، إن الرحمن سيّج حولك وحول بيتك ، وحول كل شيء لك من كل جهة ، وقـد بارك أعمال يديك فانتشرت أموالك في الارض .

وبعد ، فاذا كنت عفيف اليد لا تشتهي مقتنى غيرك ، ولا يمتد طرفك الى أمته وثوره وحماره ، فإنما كنت رَخيّ العيش قريره . ولقد اوردت في الذكريات الايوبية ما نصه « من لي بمثل الشهور السالفة ومثل الايام التي كان الله فيها حافظي . . . وهو مُجالسي في خبائي ... وصبيتي يحيطون بي ، اغسل قدميّ باللبن ، والصخر يفيض لي انهاراً من الزيت... عروقي منبسطة على المياه والندى يبيت على اغصاني » . وكنت تملك سبعة آلاف من الغنم ، وثلاثة آلاف من الابل ، وخمس مئة فدّان بقر ، وخمس مئة اتان ، وعبيداً لا يحصيهم عدّ . وكنت اعظم ابناء المشرق ، ترفل في نعيم مقيم ، بين سبعة بنين وثلاث بنات . فاذا ضمتك موجة هناء تنازعتك اخرى . وهكـذا كانت تتسابق اليك ألوان السعادة فتضلّ فيها عينك لا تدري أيها تختار .

اما انا فعلى هامش الحياة جئت ، فـاذا فكّر بي الشيطان فبقدر مـا يفكر العريس باليتيم المنبوذ ، لا يصيب مـن وليمة العرس الا رائحة الطعام ، فاذا حـاول الدنوّ من المائدة

تقاذفته سنابك الخيل في زحمة المهرجان والزفّة القائمة .

وأنا لم أغسل رجليّ باللبن ، بل غسلت جيبي من المال لاشتري مثل اللبن الذي كانت نستحم به قدماك ، فالاستحمام هذا لا تحلم به اجمل سيدات باريس المترفات ، ولا كواكب هوليود . ولقّبت بالعفيف البارّ ولقد أنجبت قبل النكبة عشرة أولاد ، ثم ضاعفت هذا القدر بعد الشفاء فنيّفت على العشرين ، فيا نعم الخصب ويا نعم القرين ، لقد سيّجت على العفة بسياج مكين .

وإذا كنت انت قد اصابك قرح من باطن قدمك الى قمة رأسك ، فأنا قد تغلغل دائي في العظام وأذابها فعجنها بالصديد. وتناوشتني المباضع فسالت روحي عليها تسع عشرة مرة ، وترصّدني الموت عشر مرات فلقيته وجهاً لوجه ، فأين انت من الشفار المرهفات تقطّع الأوصال وتتكسر النصال على النصال ، فلا ينجو من وخز الابرة الا وجهك الكريم .

ولقد سمّرني الالم مستلقياً على ظهري تسع سنين متواليات ، لا أتحرك فيها إلا بقدر ما تتحرك الخشبة على الماء الراسب ، وانطفأت زهرة صباي في المستشفيات حيث قضيت من الاعوام ستة .

وهذا هو العام الرابع عشر لمرضي الوبيل واستشهادي الطويل

ولقد لفّني الجبس تسعين يوماً وتسعين ليلة موصولة الأ"نات ،

بالا"نات ، لهّابة الزفرات ، دونها لفح الهجير ، ونار السعير ، فأنت مني بمنزلة الحصاة من القفار السباسب او كأحد الاقزام بجانب الاهرام . وتذمرت من الجلوس على الرماد وأنا تمنيته ولو على شوك القتاد . واخذت خَزَفةً لتحك بها جسدك فقل لي رحمك الله بمَ أحكّ العظام، وجراثيمها ابداً في احتدام ونارها في ضرام.

اما زوجتي يا ايوب فهي اصبر من زوجتك . اما تلك فقالت لك لِمَ تعتصم بسلامتك جدّف على الله ومت . واما هذه فقالت لي سبّح الله تحيَ . وكنت اذا ادمعت عيني مرة خنقتها العبرات ، او حزّ المبضع في اوصالي مرة حزّ في قلبها حزات .

قامت على ضمد جراحي ومسح دموعي قيام الأم على وحيد مريض ، موصولة حياتها بحياته فكانت عندما يلوّح الخطر غبّ عملية تهجر النوم وتكتم عني الهلع واليأس ، ويستحيل ذلك الى عذاب دفين لم تبلغه انت في أوج عذابك ، حتى اذا أرداها النعاس تهاوت على مقعد او على ارض غرفة المستشفى القارّة ، في ليالي الصقيع والزمهرير ، فأين قسوة زوجتك من حنان زوجتي ، وجمود تلك من رأفة هذه .

وقلت إن ذوي قرابتك خذلوك وشمت بك حُسّادك واوباش الناس وسفلتهم . اما انا فاني انزّه قلمي عن تناول هؤلاء بذكر ، لانهم رجس تعجز عن تطهيره زوفى داود ، ومزامير التوبة وصلوات الاولين والآخرين

أما اصحابك فثلاثة ، واما اصحابي الخلّص فدون العشرين وفوق العشرة وهم اعرق ولاء ، واكثر وفاءً واعفّ لساناً ، واحنى جناناً لا ينكأون الجراح ولا يزيدون في الطين بلة. اما اصحابي الوهميون فدون اصحابك بل دون الدون ، يشعرون وكأنهم لا يشعرون. اصحابك لما رأوك بكوا وشق كل واحد رداءه ، وذرّوا تراباً فوق رؤوسهم ، وجلسوا معك على الارض سبعة ايام وسبع ليال لم يكلمك احدهم بكلمة لانهم شهدوك جدّ حزين . اما اصحابي الوهميون فشقوا صحيفة المودة وذرّوها في الهواء هباء ، وتطيبوا (بالكولونيا) ورتعوا بعيدين عني في دعة وخصب ، عشرة اعوام لا يكلمني احدهم بكلمة ولا بكتاب ولا بالهاتف . ولو جاؤوني لغمرتهم بالنكات ولدفنت آلامي في صدري ، واعتصمت بعزة نفسي وإبائي. اما انت فقد خلعت على عائديك من الهموم ما ينفّر الأسْد العطاش عن مواردها . وحمّلتهم من الاحزان ما لو حمله الربيع لتعطّل الشذى ، وصوّح الزهر ، وما لو وقع على البحر لغيّض البحر . وتقول التوراة بعد كل ذلك انك فتحت فمك وليته ظل مغلقاً الى الابد إذن لكان صمتك ابلغ ، ولظللت في هالة من الكرامة والوقار . فأين انت من الصبر الجميل اذ تقول : (لا كان نهار وُلدت فيه ولا ليل قيلَ فيه قد حبل برجل) الى آخر هذا السيل من اللعنات . وقد تبجّحت ببراءتك وعاتبت الله ، وجعلت نفسك اعدل منه وأبرّ ، وسوّيته بالانسان وندمت على تقواك . وقد تنزّل الله لمخاطبتك من العاصفة مِنّةً

منه وكرماً كما تنزّل لمخاطبة اليهود من قبلك . يمطرهم المنّ والسلوى فيعبدون البعل ، وينير طريقهم بعمود الغمام فيجدّفون عليه ، والمسيح يحيي موتاهم فيميتونه على الصليب .

ولم تكفّ عن التذمر والسباب إلا بعد الجدل والاخذ والردّ ، وقد نفد قاموس غضبك فلم يبقَ فيه إلا صفحة المغلوب على امره ، المرغم على التسليم بالامر الواقع ، اذ ذاك فقط القيت السلاح .

اما انا يا ايوب وبعد اربع عشرة سنة لقيت فيها الموت ألف مرة وذقت فيها من العذاب ما لو سمعت به اذنك لندّت عن رأسك هلعاً ، ولمادت بك جبال حوران فزعاً ، فلم يرتفع لي صوت بالشكوى ، بل سألت الله ان يوليني نعمة الصبر . وانما المستقبل سرٌّ ختم عليه بختم العليّ . ومن يدري فقد اكفر واتذمر ولكني حتى الآن لم اقل هجراً بل قلت : اللهم انما الحياة الدنيا هي وادي الدموع ، والفلسفة الصائبة هي فلسفة الالم ، فاذا تخلل الحياة نهلات من رحيق الملذات فانما هو شذوذ والتواء عن الصراط ، والويل لمن يكرع اللذات موصولة ، لا يستفيق من سكرة إلاّ تأهباً لأخرى وانما يفعل ذلك هرباً من الحقيقة لأن الحقيقة ألم .

اشكرك اللهم لانك طهرتني بالألم ، وصهرت روحي في مصهر العذاب لتأخذني نقياً اليك ، فغسلتني بنداك السماوي كما يغسل

الطلّ الاشجار المثقلة بالجراثيم والغبار فتلتمع وضاءةً في شمسك ، وتنعكس عليها اشعتك ، فتدبّ فيها الحيـــاة ، وينوّر الزَهَر ويحلولى الثمر . اللهم ليس عذابي بجانب نارك شيئاً مذكوراً ، ولقد كانت حياتي كلها ذنباً كبيراً . متعتني بالصحة فانصرفت الى الباطل ، ووسّعت عليّ في الرزق فأنفقته في معصيتك . لقـــد جرّعتني كأسا مرّة ولكنها دون ما استحق فـــاذا زدتني بعـد استزدت .

وبعد سنوات سبع صحا جوّك يا ايوب واقلعت سماؤك ، وطاب عيشك ، وبدّلك الله من العسر يسراً ، وضوعف لك في المال والبنين فكانت العقبى خيراً لك من الأولى ، وحدثت ربك بعد عمر مديد امـــا انا فاحسبني في الفصـــل الاول من المـــأساة الشكسبيرية . وانما توقّع الشر آلم من الوقوع فيه .

فماذا بقي لك يا ايوب من عرشك وسلطانك في مملكة الشقاء بعد هذا كله ، وانا لم احدثك إلا يسيراً ، ولم اطـل عليك إلا من باب النفق المظلم ، ولكنك لو غلغلت في دياميس حيـــاتي لندمت على تدوين سفرك ، ولندم موسى على وضع المقدمة . ولا يكبر عليك ان ينتزع منك صولجانك لبنانيّ جاء في الزمن الاخير ، فلا تنس ان على هذا الشاطىء الملهم خلقت حروف الهجـاء التي جسّدتَ بها شقاءك ، واننا السبّاقون حتى في الالم ، مخلدون في عالم الفكر حتى يرث الله الارض وما عليها وهو خير الوارثين

* ألـم *

يا موت يا حلم الخيال النائي   يا صبح آمالي وحلو رجائي
شوقي اليك أشدّ من غصص الهوى   وأشدّ من ولع الهجير بمـــاء
شوق الصبيّة نوّرت أكمامهـا   فتطيّبت لصبابـة ولقـاء
شوق الغريق الى الضياء وقد هوى   متردّياً في اللجّة السوداء
ضَلّ الوشاة الجاهلون وأرجفوا   فدعَوْك رمز الرعب والافنـاء
أنت الرسول الحق غير مدافع   جلّت رسالته عن الالقـــاء
يا منقذ الضعفاء إنك رحمة   محجوبة الاّ عن الضعفـــاء
في كل قطر منك غيث دافقٌ   وصنائع غرّ وكف سخـــاء
مَلَكٌ مطيّته السحاب ونوره   دفق السنى في الأنجم الزهراء
نَقَلُ الخيال السمح ظل جناحه   وطوافـــه في الليلة القمراء
ما الموت إلا رقدة سحرية   مخضّرة الأحـلام غب شتـاء
أبدية سكراتها فنعيمهـا   أمواج لذات ومهـد هنـــاء

جريح

يا موت يا مَلَك الحنـان ظلمتني   وأدرت سمعك عن جريح ندائي
أترى يروقـك أن اعيش معذّبا   جسدي تمزّقـه نيوب عيـــاء
داء تخلل في العظـام فردّهـا   فلذاً واشلاء على أشلاء
سالت على حد المباضع مهجتي   فشفارها مصبوغة بدمائي

وتشابهت مني الجراح فأصبحت   حفراً تضلّ بها عيون الرائي

وادٍ تقطّعه الكهوف كأنما   جسمي الطعين مغاور للداء

جرح ترى أطرافه موصولة   وتكاد تلمح بينها أعضائي

فاذا تحرّك عندها قلبي فما   دقاته إلا نذير فنائي

وتشيع بي حمّى تهدّ مفاصلي   وتدبّ مثل الحية الرقطاء

فأغيب في الكابوس غيبة سابحٍ   في النار بين الحسّ والاغماء

في عالم الأشباح يغرق خاطري   ويمدّني في الظلمة الشنعاء

أهوي الى مثل الجحيم مُروّعاً   وأغوص في غمراته النكراء

تسعى به غبر الأراقم شرّعت   أنيابها للنهشة النجلاء

تنساب من جيف الى جيف ومن   سوداء فاحمةٍ الى سوداء

أمشي على حمم الصواعق تارة   وأخوض طوراً لجة الدأماء

ويح السفينة في الخضم شريدة   فكأنها مُنعت من الارساء

كأسي على الألم الدويّ شربتها   ممزوجة بمرارة ودماء

لم يبقَ للندمان بعدي قطرة   بالدنّ في خمّارة الارزاء

واذا العذاب اللدّ حلّ بساحتي   ضيفاً فكيف يكون في الغرباء

ان الشقاء أخي ومؤنس عزلتي   بجزيرة مغبرّة قفراء

جرداء مرهفة السنان صخورها   وهضابها كالهامة القرعاء

* * *

صبحي أمرّ من المساء فعيشتي   موصولة الظلماء بالظلماء

أوّاه لو كان الرقاد يزورني   لرضيت من دنياي بالاغفاء

لا يلتقي جفناي إلا خلسةً   فكأن بينهما قديم عداء

* * *

ألمي يشقّ على الخيال لحاقه   فيتيه بين البحر والصحراء

هو كلّ آهات العصور تجمعت   مرويّة بمدامع الشهداء

قد كنت دمعاً في محاجر آدم   وبيوم (هابيل) شهدت نمائي

لم تجرِ في لهب الخناجر غصّة   إلا عبرت بها مع اللأواء

أيوب ما أيوب ؟ ماذا خطبه   هو قطرة وأنا خضم بلاء

فاذا مررت على الجريح تعوده   فلقد أتيت مدافن الاحياء

* * *

الدكتور بدر (١)

قد حال ما بيني وبين منيّتي   بدرٍ أطلّ بلية دهماء

غمرت أشعته الظلام ومزّقت   حلك الدروب ووحشة الامساء

خلق أرقّ من المدام وطلعة   وضّاءةٌ أندى من الأنداء

حجبت وداعته الذكاء فعلمه   والعبقرية في غلاف حياء

هل تحجب الفجر السنيّ غلالة   عن مقلة الهضبات والاوداء

أو يُسلب الورد العبير وانما   نفحاته طيّبن كل فضاء

يصِل المريض بفلذة من قلبه   ويريه عطف الأم للابناء

ويمرّ مبضعه مرور الوهم أو   مَرّ النسيم على غدير الماء

أمجدّد الحسن القديم وباعث الزهو الرميم بمرأة شوهاء

أترى المسيح أعار كفك آية   نسخت سمات القبح عن حواء

تأتيك بالأنف الدميم ذليلة   فتعود تسحب مطرف الخيلاء

(١) هو الدكتور الجراحي القدير جورج بدر المختص أيضاً بالجراحة التجميلية.

هذا ارتجال الحسن بعد فنائه وإعادة الأنوار في الامساء
خفيت على الاغريق ريشة مبدع فتنافسوا في الصخرة الصماء
خلقوا المحاسن في الجماد وأنت في قلب الحياة خلقت فيض بهاء
فنّ الأغارق لا يعادل نضرة أو رونقاً في مبسم الحسناء
يا بدر إن لم تشفني فمسرّتي اني تخذتك كوكباً لمسائي
حسبي وحسب المكرمات فانها ما زال يرعاها أمير وفاء

ماضٍ سحيق

واهاً لأيام الشباب وبهجه والزهو حين جررت فضل ردائي
تختال في عزم الفؤاد فتوّتي ويطلّ من وَضَح الجبين روائي
يهفو الى الأمل المحلّق خاطري ويموج في صفحاته البيضاء
في العالم المجهول يرفل ظله ويفتّق الاضواء للأضواء
فاذا مشيت مشى الزمان بجانبي وتسابقت مُتع الحياة ورائي
قلب تنازعه الصفاء فيومه كأسان كأس هوى و كأس طلاء
يا روضة للأمس في وادي الصبا طابت على الأغصان والافياء
هل تذكر الأدواح اخوان الصفا ومجالس الندمان والظرفاء
في كل زرٍّ من ورودك نفحة منا وأنفاس ولمح سناء
هاجت قوافينا العنادل اذ اتت تبكي الهوى في الدوحة الغيناء
وتقطع الوتر المرُنّ فليس في الأسماع إلا ضجة الندماء
لم يبقَ من نغم الصبا وفتونه إلا حنين مبهم الأصداء
ذكرى من الماضي السحيق سللتها فتخضبت بالدمعة الحمراء

* * *

الشاعر والخطيئة

يا ربّ ما هذا الوجود تحيطه الأسرار مغلقة على الحكماء
ما آدم إلا جناح بعوضة متقلّب في صرصر هوجاء
أوهى من الخيط الضعيف خلقته ونفحته برفيقة بلهاء
ظمئت فما بلّ الفرات لسانها وتلهّبت كتلهب الرمضاء
لم تطفيء الأعناب نهمتها ولا الرمّان في أغصانه الخضراء
نظرت الى الفردوس نظرة تائه في البيد أو متحرّق بلظاء
ما زال يرديها الطوى ويهدّها حتى ارتمت من وطأة الاعياء
في ظلّ وارفة الغصون شهيةٍ حلمت بها بالرمز والايحاء
جاءت صفيّتها تدبّ وأومأت فتبسطت حواء للايماء
وتواثبت فيها الحياة ولوّحت رعشاتها بوليمة سمحاء
سرحت أناملها بفضيّ الندى وتناولت تفّاحة الاغواء
فتفتحت أجفانها فاذا بها مع آدم في ذلة وعراء

* * *

يا مبدع التفاح انت خلقته وأراك تحبسه عن الفقراء
أكلوا فما ذنب الجياع وطيبه ملء الفضاء الطلق والاجواء
يا لاجم الأمواج في طغيانها هلاّ لجمت الجوع في الاحشاء
وكبحت وثّاب الخيال بشاعر نبضاته مشبوبة بصلاء
من ناضر الاحساس صغت فؤاده متلهّب الوجدان في الاحناء
متعته بالطيبات فخفّ من سكر الى سكر الى اغراء

ويضلّه الشيطان فهو مقسمٌ الرغبات بين جهنم وسماء
يا ربِّ عفوك فالشراع ممزق والبحر رهن الريح والانواء
يمناك تقتاد السفينة رحمة وتبيت تهديها الى الميناء
يا ملهم العصفور أين غذاؤه حاشاك ان تبغي على الضعفاء

أصحابي واعدائي

صحبي وهل في الصحب إلا قلة حفظت على دهم الخطوب ولائي
اما الذين حسبت ودّهمُ منىً للقلب في السرّاء والضراء
فتكشّفوا عن غادرين رداؤهم مكر ولحمته نسيج ريا
لطخوا الصداقة في الجبين فويحهم من وصم ذات العفة العذراء
لولا بقية ذاكرين لأصبحت في الأرض اخت الغول والعنقاء
قد كنت افديهم بأهلي جملة وبمهجتي لو كان يوم فداء
فاذا بهم والخطب حلّ بساحتي لا يذكرون على الزمان وفائي
غاض الوفاء من الصدور فظله في الناس ظل الجود في البخلاء
أمعنت في الاخلاص حتى ملّني ورجعت والامل المهيض جزائي

* * *

وأسد سمعي عن مقالة فاجر قذفت به الأوحال نتنَ هواء
من عصبة نكس الرقاب كأنها مخلوقة للذلّ والاحناء
يتلبّسون لكل يوم حلة فجلودهم أخذت من الحرباء
استغفر الحرباء قد أحقرتها ما قدرهم مع قدرها بسواء
فليهنىء الأنذال أن أنوفهم مشدودة أبداً الى الغبراء
يتسابقون الى الصَغار وهمّهم بتسوّل الألقاب والاسماء

لا يزأر الهِرّ الذي سميته أسداً ولكن أمره لمواء
وعدا البغاث على البلابل فامّحتْ نغماتها وتبدلت بمكاء
يا دهر كم لك في المهازل صفحة مكتوبة بالعار والأسواء
غمر النفاق سطورها فدعوته في معجم التضليل فرط دهاء
أتراك يا دنيا الغرور دميمة شوهاء يسترها صفيق غطاء
كُحِلت محاجرها وزُوّر شعرها وتمايلت أعطافها لبغاء
ان كان ينعم بالسراب مُشرّد فلينعم الأقزام بالعجفاء
لا فخر للأنذال إلا انني أوليتهم شرفاً بسطر هجاء
ماذا يضير الشمس ان مرت على الدِمن القباح ومرتع اللؤماء
يا موت أقدم إن حكمك عادل ويطيب للقاضي حكيم قضاء
أقدم تجد ثبت الجنان على الردى لا يستكين لذلة وبكاء
عالي الجبين فان تخاذل جسمه فالنفس ويحك في أشد اباء
خلق تعلق بالسماء فلم يهن يوماً ولم يجبن مع الجبناء
عارٍ من الأثواب جئت وعارياً أمضي المضيّ بجبهة شماء
ألفي على ليل الشقاء طويتها ويريدني قلبي لأبلغ يائي

ولقد نفّست عن كربتي وتأكدت إذ ذاك أن لا خلاص الا بالقلم ، وأن مرارة الحياة تنمو في الانسان بقدر نموّ شعوره ، فويل للشعراء المساكين ، وطوبى لتلك الفئة من الآدميين أشباه الفيلة العديمة الحس ، يُدق في ظهورها عمود خيمة فتغدو مراكب للراحلين .

ولاحظت ان هذه الهنيهات التي يتفلت بها الاديب المتألم من قيود المنطق وحب الحياة، ليتفيأ أدواح الفنّ ويتناسى محنته ولو ساعات معدودة، هي أشبه شيء بالماء الكوثر ينزله الصادي وقد احترقت لهاته استعاراً، وكاد يموت أواراً. وفي ظني انها لحظات لا تدخل في حساب الزمان بل في حساب الابدية، لأن الزمان والمدى يتعطلان في هـذه الحالة كما يتعطل الحس عند الصوفيين، إذ يتجمع المرء كله في هذه اللحظة نفساً وجسما وماضياً وحاضراً ومستقبلاً، فينعم بهذه اللمحات كما ينعم السجين المكبّل اليدين بمنظر الروض الباسم، ولو عابراً من سجن إلى سجن. أجل إنه وهم وإرجاء الألم الى حين ولكنه وهم حلو، وخروج على الأصل لأن الألم في أصل الحياة ولكن الظمآن الجافّ الريق، المشقق الحلق يستطيب الماء الفاتر.

وكانت قصيدتي «ألم» مفتاحاً لعهد جديد وعالم باطنيّ تعرّفت فيه إلى ذاتي بعد أن استغلقت عليّ أعواماً طوالاً حتى حسبتني شيئاً بين الأشياء فآمنت بالموضوعية، وانفصلت الذات العارفة عن المعروفة وعن موضوع المعرفة. ولم يتنكّر القلم لصديقه القديم كما تنكر له أشباه الرجال، فمدّني بطائفة من القصائد بينها «اليتيم» و«من لبنان» و«النسر» و«إلى الأونسكو» و«الميلاد» ومطوّلات نشرت في كراريس على حدة منها «عليّ والحسين» و«الامير بشير» و«فلسطين وأخواتها». أما هذه الأخيرة

فثورويّة جديرة بالجماهير. وجاءت في آخر المطاف ملحمة «عيد الغدير» يضاف إلى ذلك كتابي (حديث العشية) وهو كتاب بلغة النثر ومداره الفكر قديماً وحديثاً. وأعتقد ان في هذا الانتاج الادبي كثيراً من الغثّ يشفع به بعض السمن، وكلّه مطبوع بطابع العجلة لأن حالة المريض المهدد بالموت كحالة من يخشى ان يفوته القطار فيكتب إلى اهله ماشياً على الرصيف. وكل ما نظمت في هذه الفترة موسوم بميسم الألم لو استطعت ان تقرأ ما بين السطور، ولكنه على غير طريقة إرميا فلا نواح ولا ندبة، كما انه ليس رواقية او تحجراً، ولكنه القلب الانساني غير متفلت من قيود البصيرة.

وقد يطالبني بعضهم بالشعر الصافي والتجريد والصقل الفني، وليس ادبي خلواً من هذه العناصر ولكني آثرت ان اكون وجودياً وهذا المذهب هو الى الحياة اقرب، وبصميمها اعلق، فضلًا عن ان الافراط في التجريد يجوّفها ويفقرها ذاهباً بلبابها، فيكون مثل من يحاول ذلك مثل آكل الصبير ينتزع منه البزر. وليس التجريد في طبع الحياة بل الوجودية، وهي توتّر دائم وصراع الاضداد، قلق وطمأنينة، حب وكراهية، ليل ونهار إلى آخر الباب.

جميل هو الصقل والعناية وتحكيم العقل، ولكنّ في الغلوّ تضييقاً على القلب، وقتلًا للغرائز، وتزويراً على الطبع. إن

زهور الحقل التي تنبت بجانب الشوك، بل تنبثق من الشوك نفسه لأزكى عبيراً من تلك التي تعمل فيها يد الانسان تقليماً وصقلاً وتشذيباً وتقصيراً حتى لا تبقى منها إلا الصورة بعد تبخّر المادة. إن سليمان في عنفوان مجده لم يلبس حلة ابهى مما تلبس هذه الاوراق النابتة في الغابة البكر، وفي الجُرُف المنتاف المتدلّي على الهاوية تدلّي الغمامة الشقراء على البحر الرهيب.

ويعجبني قول شوقي في روايته «مجنون ليلى» ناطقاً بلسان الشاعرة بنت الطبيعة :

لنا قبلة الشمس عند البزوغ   وللحضر القبلة الثانيه
فنحن الرياحين ملء الفضاء   وهنّ الرياحين في الآنيه
ويقتلنا العشق والحاضرات   يُقمن من العشق في عافيه

ولا تحمل كلامي هذا على محمل القدح في الحضارة، او على التفلت من الثقافة، فمن يؤثر الغصون الخضر الزاخرة بالمائية، والوردة الطافحة بالأرج - ولو شائكة - على الغصون والبراعم الاصطناعية، لا يكون مبشراً بدولة الحطب او الخشب الرثّ، وكلاهما طعمة للنار. وبعد فلماذا احاول تقويم هذه الاوراق التي سوّدتها فأن شئت فاجعلها رماداً.

* المال والنفقات *

آمنت المانوية بإلهين الاول اهيرمزدا وهو إله الخير، والثاني أهرمن وهو إبليس او إله الشر.

وقال السيد المسيح له المجد لا تعبدوا ربين الله والمال. ولو تجسد أهرمن لما كان شيئاً آخر سوى المال. والمال رب خلاق ويحسبه انه خلق الاغنياء، ودخول واحدهم الى السماء اعسر من دخول الجمل في سمّ الخياط. اولئك الذين ختم الله على قلوبهم وعقولهم «كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار. سورة غافر : ٣٥»

«**اولئك** الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما اتاهم الله من فضله. سورة النساء : ٣٧» «يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون. التوبة ٣٤»

«**فادخلوا** ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين. سورة النحل : ٢٩»

واقتطع المال من البشر فئة شبيهة ببني الانسان، تقدم له

الضحايا والقرابين في هياكل لم تشيد من حجارة وطين ، بل من افئدة وشرايين تخفق لذكره وتسبّح بحمده فسلام على الكافرين، وإن هم إلا قلة يلعنونه في اللاعنين . ولكن (أهرمن) كأخته عشتروت شرّ لا بد منه .

ولقد كنت ومـا زلت في الكافرين ، ولكنه الجسد يقتضي الغذاء والكساء والدواء ، وفي عنقي زوج وفراخ زغب الحواصل فالى اين المفرّ من هذا الطاغية إلا ان تأسره فتكون له سيداً ويكون لك عبداً . ولكنه يستأسر للأغنيـاء ليكون ربّاً ، فاذا حاولت استعباده فقــد اقحمت نفسك في عراك اليم تخرج منه وانت تلهث اعياء ، فاذا ظفرت به أبِقَ في اليوم التالي وتضطر للمعركة من جديد

والحق أقول لك ان هذا الزئبق الفرّار أجهدني فأنفقت بـين سنة ١٩٣٦ و سنة ١٩٥٠ ما يربي على المئة وعشرين ألف ليرة ، في جملتها ثمن غابة صنوبر تلقيتها عن ابي رحمه الله . ولقد كانت تلك الغابة التي حصدتها الفؤوس ثروة في أعين الترابيين . وكانت في أعين الشعراء اعمدة للجمال الأخضر ، منطلقة من جبال الرمل الذهبي الأصفر . زمرّد على عقيق ، وعطر ونسيم ، وأظلال ونعيم . وكانت في نظر أصدقاء الشجرة ملتقى ملكات حسان كشفن عن سوقهنّ كما فعلت من قبلهن ملكة سبأ (اذ قيل لها ادخــلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال انه صرح

ممرد من قوارير . سورة النمل ٤٤)

واذا ذكرت اني قضيت في المستشفيات زهاء ست سنين - وان الضماد الواحد كان يكلفني خمسين ليرة في بعض الاحيان نظراً لغلاء الادوية في تلك الايام وانعدام بعضهـا ، إلا تهريبـاً من تركيا أو سواهـا ، بحيث كانت الانبوبـة الواحـدة مـن ال (Soludajenan Spécia) تكلفني عشر ليرات ، والضماد يقتضي أكثر من واحدة منها في كل يوم - عرفت كيف تبخّرت الثروة وطارت غابة الصنوبر على أسرع من أجنحة النسور .

قلت لك اني من الكافرين بأهرمن وجنوده وعبّاده ، واني ما ترددت ان اصفع هذا العبد وأسهّل له طرق الفرار ، تبرّماً به واستثقالاً لظله ، وجهلًا بمداراته - ولا اخفي عنك اني في عهد التلمذة كنت الاخير في علم الحساب وعـلى الاخص في الضرب والجمع .

ومما كان يؤلمني ان اساطين البخـلاء واعلامهم كانوا يعزونني عن استهلاك المال بالحطّ من شأنه وتهوين قدره ، وانا البحر لا تعكّره الساقية الكدرة ، وهم الصهاريج يضيقون بالحصاة . وبينهم الاغنياء الذين يؤثرون الالم ويكادون يفضلون الموت على إنفـاق الفلس الواحد . وقد عرفت واحداً منهم كان يرمي بنفسه من حافلة الترامواي عند ما يقاربـه المفتش ضنّا بفرنكين ، وانك

لواجد من هؤلاء (البرامكة) عدداً ليس باليسير ولكن اين الرشيد فينادي مناد للخليفة في يحيي ؟ ولقد نصح لي احد هؤلاء الثرثارين الحاقمين ان ازور مقام سيدة لورد في فرنسا مؤكداً لي الشفاء بأعجوبة ، كانه سفير العذراء المفوض وهو في الحقيقة كمعظم المسيحيين وثني عصري ، ايمانه قشور ، وصلاته قرع ناقوس وحرق بخور ، وإلهه الفلس من حيث اتى .

ورأيت ان اقطع هذه الثرثرة المتكررة ، وتراءى لي البرهان الحاسم فقلت : يا اخانا اتؤمن انت بشفائي فقال نعم . فقلت إن هذه الرحلة تكلفني ثلاثين الف ليرة واني اقترض منك خمس مئة فاذا شفيت اعدتها اليك الفين وإلا خسرتها انت

وكانت هذه المجابهة خاتمة الهذر وآخر الدواء الكي .

أحالتني الحكومة اللبنانية على التقاعد سنة ١٩٤٤ بعد انتظار طويل فصبرت على اوسع ما يكون الصبر لعلي اشفى .

وقامت في وجهي مشاكل مادية جديدة ، فرأيت ان ابيع عقاراً خاصاً بزوجتي . وبيع العقار ديناً على ان يدفع المشتري فائدة شهرية تسد ثغرة في باب النفقات . وكان صاحبنا المشتري واسع الحيلة ، ميّت الضمير ، فأصيب بعجز مالي واشتهرت فضائحه ، وطرد من وظيفته بعد ان حكم عليه بالسجن . وهكذا ترانا طلبنا الزيادة فوقعنا في النقصان وفي صعوبات جديدة ما

انزل الله بها من سلطان . وجاءني بعض المدد الاقتصادي من ربع مؤلفاتي ، التي تولّى توزيعها فريق من اصحابي الاوفياء وقرّاء كتبي ولكن هذه الفئة من الكرام قليلة . وعلى الجملة فليس اسوأ من حظ الاديب في الشرق العربي ، فسائق السيارة اوفر حظاً منه ، وبائع (الكعك) ايسر حالاً من الشاعر الذي تكسد كتبه إلا ان يقدمها هدية للقراء مذيلة بتوقيعه ويدفع اجرة البريد .

وأذكر اني وزعت قرابة الف نسخة من (ملحمة عيد الغدير) ومثلها من كتبي الاخرى على سبيل الهدية الى مختلف الاقطار العربية .

وها هو العراق القطر الحبيب الذي امتدحني ادباؤه وعلماؤه حتى غصّت الصحف بما وجّه الي من تقريظ بسبب (عيد الغدير) يكاد يعجز عن مشترى الف نسخة من الملحمة ، وقد كلفتني اجرة البريد زهاء خمسين ديناراً .

فتصور مثلاً ان النجف الاشرف ، مدينة الامام الاعظم لم يأخذ من الملحمة اكثر من خمسين نسخة ، وهذا مقدار تستوعب ضعفيه قرية كالنبطية في لبنان .

وقد جاءتني رسائل عدة من بعض اخواننا هناك مضمونها ان الملحمة نالت إعجابهم فعلي ان ابعث بها اليهم مذيلة بامضائي .

وكان قد سبق لي ان اهديت العشرات منها الى الوجوه والاعيان فلم اكافأ ببطاقة شكر (١) .

وقد كان بعض اللبنانيين يزورني لاعلامي بان واحدهم اشترى نسخة من قصيدتي (الأمير بشير) او (علي والحسين) فيمنّ علي بأنه دفع الليرة او الليرتين . وانا لا امنّ عليه بفلذات اقتطعتها من قلبي ، وليالٍ لم اذق فيها النوم إلاّ غراراً خاشعاً لخاطرة ، او مطارداً لقافية ، او دامع العين من ألم او من ذكرى ألم . اجل ليس في البلاد العربية ارخص من الفكر واهون من القلم ، حتى في نظر الطبقة الراقية من اطباء ومحامين ، وقضاة ومهندسين ، وطلاب ومتأدبين ، إلا اذا استثنيت الكتب المثيرة للغرائز ، فانما الاكثرية تفكر جنسياً ، اي حيوانياً او انها لا تفكر مطلقاً . ذلك هو القطيع يسير الى المرعى ، فاذا اكتظ واتّخم ، تثاءب وتمطّى وهرب من السأم إما الى التناسل وإما الى النوم والتكاسل . ولا أخفي عنك اني ابتليت ببعض موتى الضمائر ممن

(١) كتبت هذه المذكرات خلال شباط سنة ١٩٥٠ . وفي اواخر آب سنة ١٩٥٠ هزّت المروءة بعض كرام الكربلائيين المصطافين في لبنان فألفوا وفداً من اعيانهم ، بينهم السيد العليم الدكتور عبدالجواد الكليدار والاستاذ الاديب حسن عبد الامير المهدي ، ونخبة من تجار المدينة الخالدة وقاموا بزيارة المؤلف في قريته بتدين اللقش . وكانت هنيهة انتظمت فيها القلوب العراقية واللبنانية في خفقات موحدة . ومما هو جدير بالذكر ان هذا الوفد يهتم اليوم بشأن الملحمة في العراق

طلبوا المئات من مؤلفاتي الى المهاجر والأقطار العربية ، فحمّلوني النفقات الطائلة التي ينوء بها الكاهل الصلب فكيف بالجناح الكسير. ولم أحظ من هؤلاء ولو بجواب . فاذا وضعت نفقات الطباعة ، والكتب المهداة ، وما كسد وما ضاع ، وما بيع وغار ثمنه في الضمائر الواسعة ، عرفت ما بقي في كفة الربح .

ولك أن تقول بعد هذا ان الادب يعطى مجّاناً . اجل ولكن خادم الهيكل من الهيكل يعيش . واذا أنت جرّدت الشجرة من التربة التي تغذّي جذورها وعرّيتها فأسلمتها للهجير اللاهب فمن أين تأتيك بالثمر . وفي مأثورهم : قبل أن تتفلسف يجب أن نأكل . الأدب العربي ! الأقطار العربية ! الدول العربية ! كلمات كبيرة ضخمة فخمة تذكّر بماضٍ مجيد ، وتفرّ الادباء المساكين . ولكن من ذكر قضية فلسطين عرف كيف خفّت موازين العرب في العصور الأخيرة واستنزل الرحمة على المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون. وقد أعجبني تساؤل الاستاذ السيد صدرالدين شرف الدين (١) في مذكرات رحلته الى المهاجر على باخرة يونانية كيف ان هؤلاء اليونان وهم ثمانية ملايين ينشئون البواخر تمخر البحار على اسمهم ، والأربعون مليوناً من العرب لا حول لهم ولا طول . ألا هوّن عليك يا أخي فلغيرهم الآيات العظام ولهم الأحلام والأوهام .

(١) هو نجل صاحب السماحة المجتهد الأكبر الامام السيد عبدالحسين ال شرف الدين . صاحب جريدة الساعة في بغداد سابقاً وصاحب مجلة الألواح البيروتية اليوم وقد صدّرنا هذه المذكرات بكلمته الرفيعة .

* الصداقة *

في جملة ما كنت اقرأ من الأمثال والحكم قول الناظم :

جزى الله الشدائد كل خير ... ولو كانت تغصّصني بريقي
وما شكري لها إلا لأني ... عرفت بها عدوي من صديقي

وقول الآخر :

المرء في زمن الاقبال كالشجره ... والناس من حولها ما دامت الثمره
حتى اذا راح عنها حملها انصرفوا ... وخلّفوها تقاسي الحر والغبره

وكنت أمر بهـذا النظيم – لخلوّه من الشاعرية – مر الغني اللئيم ، باليتيم اللطيم. ولا غرو لأن تأثر المرء بأحد المعاني يكون تبعاً لحالته النفسية ومعلوم ان المعنى الواحـد يختلف صداه في النفس بحسب الزمان والمكان . وان لعندلة البلابـل في أذن العاشق الذي بات على موعد وقعاً يختلف عن وقعهـا في أذن المريض الناعم بغفوة قصيرة اختلسها في غفلة الألم . فالاول يحمد البلبل على اليقظة والثاني يسبّ البلبل وينقم على القماري ويتمنى على الله أن يمسخها زحّافات وهواماً .

أجل لقد شكرت الشدائد لاني عرفت بها عدوي من صديقي.

والصداقة أوثق العرى الاجتماعية التي تشد الانسان الى أخيه

الانسان فتدمج روحاً بروح ، وتمهر الاثنين بالقبس الالهي الاعلى مصدر كل روح وبارىء كل نسمة .

الصداقة هي التيّار المتبادل بين قلبين . يوحّد بين الخلجات والمشاعر فتنصهر في بوتقة واحدة ، وتتألق في عمود من ضياء فيتبدد الظلام وتسقط الكلفة ويرتفع الستر .

الصداقة إعجاب متبادل ، وائتلاف مشارب ، واطمئنان الاخ الى أخيه يؤازره ويؤاسيه. يفضي اليه بسرّه ويشكو اليه ضيمه ، ويستشيره في الصعاب ويحفظه في الغيبة ، ويدفع عن عرضـه ، ويفتديه بماله فيستقوي أحدهما بالآخر ، فكأن كلا منهما يفكر برأسين ، ويشعر بقلبين ، ويتكلم بلسانين ويبصر بأربعة أعين .

ورابطة الصداقة أمتن من رابطة الدم ، لانـك في الاولى حر تختار ، وفي الثانية مكره تلعب بك المصادفة والاقدار ، وتسيّرك أهواء اجدادك وجداتك فتضيع ارادتك بين اصول وفروع فأنت برغم انفك تابع غير متبوع .

والصداقة الحقة تستطيب التضحيـة وربما كان المعطي اكثر اغتباطاً بالعطاء من الآخذ بالنوال . تلك هي الانسانية عندمـا تتخطّى حدود العدل لتطل من شرفة المحبة وتنظر مرة الى الارض حيث تروع ، ومرة الى السماء لا لتحصد بـل لتقول اللهم : حسبي اني اعمل في طاعتك ، فثوابي في عملي نفسه ، لانك انت محبة

وفي التأريخ امثلة على الصداقة التي تزدري الموت لانها اقوى منه شكيمة وابعد معنى . وعلى هذه الفضيلة قامت شواهد كثيرة في تأريخ العرب والمستعربين وهي احدى مكرماتهم

قيل لما جاء رسول السفّاح ليدعو عبدالحميد الكاتب الى الموت ، وقد أرهف سيف الجلاد ، وجاشت النقمة في غراره . كان عبدالحميد مع صديقه الحميم عبدالله بن المقفع . وكان رسول الخليفة لا يعرفهما شخصياً فسأل عن عبدالحميد فتصدّى له عبدالله وقال انا طلبتك . وقامت مشادة عنيفة بين الصديقين وكلاهما يدعي انه عبدالحميد . وانت ترى انهما لم يتسابقا الى جائزة اومنصب بل الى الموت .

ولكن ذلك العهد تصرّم ويكاد يصح في الزمن الحاضر قول الناظم :

ويقال ان المستحيل ثلاثة   الغول والعنقاء والخل الوفي

ويصح القول المأثور : الناس اصدقاؤك بقدر حاجتهم اليك . وبئس المنفعة تكون محوراً للصداقة ونقطة انطلاق للشعور . وليس في عالم القيم أحطّ من مبدأ المنفعة الا الرياء الذي يمسخ الانسان قرداً بهلواناً ، ويحمله على النفاق متستراً بطلاء يسمونه مجاملة وتلطفاً وسمّه ان شئت مصانعة او تزلفاً . وهو تزلف لا يرتفع عن مسايرة الكلب لصاحبه . عفواً لقد غاليت في

التشبيه فظلمت هذا الحيوان الامين وقرنت به طائفة من بني الانسان . استغفر الله فليسوا من الانسانية في شيء .

قيل ان افلاطون حدد الانسان بكونه حيواناً بدون ريش يسير على رجلين . فجاء (ديوجين اللايرتي) بديك نتف ريشه والقاه في المجلس صارخاً ها هو انسان افلاطون . وانما هؤلاء البشر في طبقة ديك ديوجين لو لم يكن اطرى لحماً ، واقل زهواً ، وأخفّ شراً . اما الكلب فقد كان – قبل ان تفسده المدنية الزائفة فتحلّه محل الولد الوحيد – مضرب المثل في الحفاظ والوفاء ، والصبر على البرد والجوع والاستماتة في سبيل صاحبه .

وبحسبك ان تعلم ان الأديبة المغفور لها ميّ زيادة لم يمش في في جنازتها سوى نفر بينهم كلبها الامين الذي سُلخ عن قبرها سلخاً بعد ان واراها التراب ، ولم ينقصه في موقفه هذا إلا الدمع والعقل . اما الاخلاص فكان بادياً في عينيه ، ولك بعد هذا ان تتفلسف فتجرّد هذه الحيوانات الوفية من خصائصها وتدعوها آلات متحركة ، ولك ان تجردها من كل شيء إلا من الاخلاص

ولقد كنت اتبرّم بهذا البيت من الشعر :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى
وصوّت إنسان فكدت اطير

والبيت كما ترى ثورة على المجتمع ومدعاة للتشاؤم ، وفيه كثير من الغلوّ غير انه لا يخلو من حقيقة .

والارجح ان شر الانسان كان في جملة الاسباب التي دفعت بالحبساء والزهّاد الى البرية ، يقتاتون بما تيسّر لهم من النبات ويرتفعون بأنفسهم الى الله ، بل ينطوون على أنفسهم ويناجون الحق الكامن في صدورهم ، ويسمعون الجواب ببصيرتهم ، وفيها اكثر من خواصّ الاذن والعين والدماغ . وحسبهم في هذه الخلوة الروحية غبطة انها لا يعكرها صوت منافق فيكدّرها كما يكدر البخور نتن جيفة ، او كما يقطع الحلم الهنيء نهاق أتان .

ولا ريب انك بعد هذا تتهمني بالتشاؤم وفقدان المحبة ، برغم ما لقيت في هذه (المذكرات) من دعابة تلازمني حتى في مواجهة الموت . اما تشاؤمي فلا ينطوي على الكفر بل يوازي قول الكنيسة : ان هذه الدنيا هي وادي الدموع ، وقول الامام الأعظم :

ان دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها

أما فقدان المحبة فلا ، لاني غاضب غير حاقد ولا آثم . قال الرسول بولس : اغضبوا ولا تخطأوا (افسس ٤ : ٢٦) علماً منه بمنازع النفس البشرية التي تفرح وتغضب . ولقد كان الطرسوسي وجودياً لا يتيه في بيداء النظريات فيشير على الجياع المتشوقين الى كسرة الخبز بأكل (البسكوت) . فان لم يقنعك هذا فها هو المسيح له المجد – وهو الذروة – في المحبة يغضب فيطرد باعة الحمام والصيارف من الهيكل ويقلب موائدهم قائلاً :

بيتي بيت الصلاة يدعى وانتم جعلتموه مغارة للصوص .

المسيح مصدر المحبة يشبّه الكنعانيين بالكلاب اذ يقول للمرأة لا يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب (انجيل متى ١٥ : ٢٦) ويدلّك هذا على ان الانسان المتجرد من الانسانية تمّحي قيمته فيغدو أحط من الحيوان . وترى يسوع في موقف آخر يشبّه بعض الناس بالخنازير فيقول : لا تطرحوا جواهركم قدام الخنازير

المسيح مصدر المحبة لا يبغض الفريسيين ولكنه يوبخهم لتجردهم من القلب ويفضح نفاقهم . ويشبههم بالقبور المكلّسة التي ترى من الخارج بيضاء كالثلج وداخلها عظام منتنة . الواقع الوجودي برهان يصدع كل برهان كالشمس تمزق الضباب .

فاذا كنت لائمي بعد هذا ايها القارىء فضع نفسك مكاني – ولا اتمناه لك – ولن تستطيعه إلا اذا مررت بالمراحل نفسها ، وذلك جدّ مستحيل .

قيل إن كاهناً ريفياً كان يحب الفاكهة والحلوى ، فهبط بيروت في اسبوع المرفع ، وعاد الى الدير مصحوباً بعلبة مليئة (بالبقلاوة) الفاخرة . وأدركه الصوم في اليوم التالي فلم يمدّ اليها يداً لان السمن محرّم عليه . وعانى صاحبنا ما عاني في كبت شهوته ، وراض نفسه على الحرمان منتظراً حلول عيد الفصح .

وكان أجيره ابراهيم يكنس الغرفة في غياب معلمه ، وبستطيل

على الكنز المرصود فينفض الغبار عن العلبة ولا يعفّ عما في داخلها . وجاء العيد فاتجه الكاهن بقلبه وفمه الى المخبوءة تحت السرير ، تلك التي راودته عن زهده سحابة خمسين يوماً فثبت ، واعتصم بالانقطاع عن الدسم ، فوجدها أخلى من رؤوس الأغنياء الوارثين . فساء ظنه بابراهيم ولكن القرينة وحدها غير قاطعة ، فرأى أن يحمل المتّهم على الاقرار من تلقاء نفسه ، فدعاه الى الاعتراف ، والاعتراف في عيد الفصح فريضة على التائبين . فلبّى ابراهيم الدعوة ، وجلس الكاهن في منبر التوبة ، وركع الأجير وسرد خطاياه ، وكتم خطيئة الشراهة . ونفد صبر الكاهن ، وتراءت له العلبة البائدة فقال بحدة ومن أكل البقلاوة يا ابراهيم ؟ فتظاهر المتهم بالصمم وقال لم اسمع . وعاد الكاهن فرفع صوته وكرّر السؤال ثلاث مرات ، وأعاد الأجير الجواب نفسه فسخط المعلم فأقنعه الخادم بأن المكان مسحور ، وأن الراكع يصاب بالصمم . فنهض الخوري غاضباً وركع مكان الأجير . ودخل ابراهيم كرسي الاعتراف وخاطب معلمه قائلًا من أكل تفاحة جيراننا في الصيف ؟ (وكان الكاهن آكلها) فصمت وقال لم أسمع . حقاً يا ابراهيم ان من يجلس مكانك يصاب بالصمم .

أصحابي ! اللهم اغفر لي هذا التجديف على الحقيقة وانما الحقيقة هي روحك القدوس ، وقد جاء في الانجيل ان من جدّف على الآب والابن يغفر له ، ولا يغفر لمن جدّف على الروح القدس لا في هذا الدهر ولا في الدهر الآتي .

أصحابي ! وكانوا يباهون – خطاءً أم صواباً – بصداقتي وكان يطيب لي ان افتديهم بمالي وولدي ، وانا اتحدى أياً كان ان يتّهمني في وفائي إفأنا – على كثرة عيوبي – استطيع التحديق الى قرص الشمس والمباهاة بفضيلتين : نزاهتي قاضياً ووفائي صديقاً ، ولن يكذبني إلا منافق او مجنون . اولئك لما يئسوا من شفائي وتقطّعت بي أسباب الرجاء تولوّا كأنهم لا يعرفونني ، وأصبحت في نظرهم ميتا . ولم يبق في صف الاوفياء إلا قلة لا تكاد تجاوز أصابع اليدين ، وكذلك هي عتاق الخيل تكون قلة ولا يثبت في الميدان سواها .

ومما يجدر بالذكر أن اكثر الذين آسوني في محنتي لم أعرفهم إبّان العافية ولم أمد اليهم يداً بفضل ، ولا اذكر اني أنجدتهم بقلم أو لسان . فبهؤلاء النبلاء وأمثالهم صحّ عندي ان المروءة لم تنقطع عن وجه الأرض .

وما كنت لأرجيّ من هؤلاء الأصنام الذين عبدتهم بالأمس نفعاً ، وهم يعلمون اني أقدّم الأنفة على الحياة . ولو جاؤوني لما حمّلتهم رهقاً ولكنت أرضى منهم بالايناس والقيام بحق المودة ، إذن لشهدوا بيتاً عرفوه مفتوحاً ولمّا يزل ، وصدراً طويته على حبّهم زمناً ، ومخيّلة كانت تبتدع الأساليب لاسعادهم قدر الطاقة .

ومن سوء حظ المريض (الرهين المحبسين) انه يفرّ من حاضره الأسود الى ماضيه الباسم ، وان منظر هؤلاء الفرّيسيين او القبور

المكدّسة التي عايشها والدنيا مقبلة ، يعيده الى نعيمه الموهوم كرّة أخرى ، ويذكي في وعيه الالوان التي خنقها الألم فيبعثها كما يبعث الضوء ألوان قوس القزح . وعلى الأخص اذا كان المسكين في زمرة المغضوب عليهم الشعراء . ومن المضحك أن يهزل الزمن فيرفع فريقاً من هؤلاء الأنكاس الى المناصب والوظائف العليا حيث يدلوّن دلّ الطواويس ، ولكن الطاووس برغم جماله يبقى في عالم الحيوان ، واثمن ما فيه ريشه ، واولئك أنفس ما فيهم ألقابهم .

وليس مثل الخمر والمنصب محكّاً للرجال ، فكلاهما نشوة . وقد تنجلي السكرة عن عبقري صليب الجناح ، حديد البصر يضرب اجواء باجواء ، ويزحزح أفقاً عن أفق فلا ينال جناحيه الغبار ، بل يبقى ذهبّي الخوافي والمنقار .

وقد تنجلي عن خنزير يتقيأ ويغوص في الأدران . يعتزّ بسمنه ولكنه يبقى برغم الشحم واللحم مشدود الرأس الى الدقعاء ، تلبيةً لنداء طبعه ، فاذا حاول الشموخ بأنفه غدا سخرية للناظرين

فيا أيها الأنذال اني لأربأ بنفسي أن اسمّيكم ولقد تعودت أن أغمس قلمي بالضحى فكيف أجيله في مستنقع . ولقد عرفني الورق بستانياً يوشّيه بالورد ، ويطيّبه بالبنفسج فكيف أغطيه بالسماد . بل ان هناك سببا أبلغ وهو ضنيّ على اسمائكم بأن تدخل التأريخ

وحبذا لو خلا التأريخ من اسم بيلاطس ويوضاس لانها دخلا في الخلود بهذا السبب

* خاتمة *

اللهم هـا أنذا اتوب اليك توبة نصوحاً فـلا تغلق في وجهي باب رحمتك ، فاشفِ نفسي بقـدرتك . واذا كان الألم الصارخ الذي يحزّ في جوارحي نداء منك للنعجة الضالة ، فحبذا النـداء الموصول يبلغ أعماقي ، ويبعثني خلقاً جديداً ، وطالما فتحت بمثل هذا الصوت الخفيّ قلوبا غلفاً وآذاناً صمّاً .

لقد استعبدتني الخطيئة بما مـدت حولي من العوسج فاستأصل نعمتك هذه الاشواك التي خنقت زنابق الخير ، لعل تلك البراعم الدفينة تنمو في حرارة شعاعك القدسيّ ، بعد أن اكتنفها الظل طويلا حتى عادت نباتاً بالقوة فاجعلها نباتاً بالفعل .

عبيدك هم الأحرار واحرار العالم هم العبيـد ، فحطم قيودي ولو بمطرقة الألم فأتفلت من هذه السلاسل بعونك .

اللهم اجعلني وديعاً وبدّد كبريائي لئلا أحـاول تبرئة نفسي قدامك ، فازداد خطيئة على خطيئة وشرّاً علـى شر . وانمـا الكبرياء أشد خطراً عليّ من كل ما ابتدع الشيطـان من حيل ، ونصب من أشراك . ومن أعلم منه بمضاء هذا السلاح يجرده على الضعفاء ، فاذا بهم يعينونه على أنفسهم فيا لضحـايا الغرور . اللهم

خففني من أوزاري ، ومدّني بجنـاحين أرتفـع بهما الى الذرى
فأنشق هواءً لم يتلـّوث بعفونة الارض .

ولا تكن توبتي اليك سطحية كتوبة الفريسيين بل اجعلها ناراً
تحيل أمسي رماداً ، فيولد من هذا الرمـاد بشر جديد تدعمـه
نعمتك ، فتستقوي فيه عناصر الخير عـلى جراثيم الشر ، وتظهر
عليها كما يظهر الضحى على قطع الغمام . أنقذني من الوحل الذي
تزلّقت فيه كثيراً وخذ بيدي لئـلا اعود الى السقوط ، فان
قدمي ثقيلة مشدودة الى التراب ، منه جاءت واليه تحاول الاياب.
وانا لست ملاكاً ولن أكونه فلا تتركني أعود حيوانا .

اللهم اجعلني عبرة لهذا النشء الطـالع الذي يتفلسف عليك
فتارة يمنّ عليك بالوجود ، وطوراً ينكر وجودك ، وقد أضلّته
الشهوات وأغواه الشيطان متجسداً تارة في ابتسامة حلوة وطوراً في
كتاب زنديق او فاجر . وها أنذا أنادي هؤلاء الفتيان من مختبر
الحياة ، وقد ذقت مرّها ولم أجد فيها حلاوة إلا منك وبـك
لأن لا معنى للحياة بدونك . تستخرج من الشر خيـراً لحكمـة
منك تخفى على عقولنا القاصرة ، إذ لا نرى إلا ناحية واحدة من
الأمور ، وانت وحدك تراها جميعـاً ، لا يحجبها عنك الزمان
لانك السرمدي الأبدي خالق الزمان والمكان وما فيهما .

اللهم عليك توكلت ، فالمتكل على سواك انما يضع قدمـه في
الفراغ الرهيب ، فاعصمني بنعمتك من أباطيل الدنيـا وزخرفـها

فانها فاجرة تفتنّ في ضروب الاغراء والسحر . تروح بلون وتغدو
بـألف لون فيزيـغ البصر ، ويطغى الفؤاد ، ويهوي الانسان الى
حيث لا تريد ولا يريد . وما كنت سبحانك بغافل عن الانسان ،
فقد وسعت عنايتك كل شيء حتى رآك الحلوليون في كل شيء
بدءاً من العصفور حتى الكوكب المتألّق بالنور .

اللهم لئن شللتني عن الحركة وعزلتني عن العـالم الخارجي ،
فشلّ قلبي عن الخطيئة ، واعزلني عن السيآت ، وليكن هـذا
المطهر اليسير بديلاً عن مطهرك العادل ، فأكون قد أسلفت في هذه
الدنيا بعض ما يبهظ الكاهل من حساب الآخرة ، ولترجح كفة
الرحمة على كفة العدل .

اللهم اني معلّق بخيط فوق هوة الأبـدية واني استرحمـك يوم
أذن بانقطاعه ، ان تهزني هزّا رفيقـاً لأرفـع عينيّ الى فوق ثم
اطبق اجفاني على آخر قبس من ضيائك .

بولس سلامه

بيروت ١٥ آذار سنة ١٩٥٠

وقعت بعض اخطاء مطبعية لا تخفى على القارىء اللبيب . وانما نصحح منها ما يدعو الى الالتباس

الصفحة	السطر	الخطاء	الصواب
ج	٧	لتجاربة	لتجاربه
ح	٢	قارقه	فارقه
١	٣	ذا	اذا
٢	١٦	اليديهي	البديهي
٥	١٨	الذي	الذين
١٠	١٨	بنفذ	ينفذ
١١	١١	ويمنظم	وبمنظّم
١١	١٧	برميند	برمنيد
١٢	١٥	ألا	إلا
١٣	١	لآلي‌ء	لآلىء
١٤	٩	آله	إله
١٥	٢	مباترة	مباشرة
١٨	١٨	الآلوهية	الألوهية
٢٠	١٢	يحشى	يخشى
٢٤	١٢	ألا ألا	ألا
٢٨	٩	استثعرت	استشعرت
٢٨	٩	حرارة حرارة	حرارة
٢٩	٦	مكتت	مكثت
٢٩	٨	وارأس	وارئس
٣١	٢	العطم	العظم
٣٤	٢	لجامعة	الجامعة
٤٩	.٩	Ambou	Embout
٥١	٤	وبدا	وبدأ
٥٢	٢	ذم	دم
٥٢	٢٠	ولقد كنت مستنطقاً (بفتح الطاء) مدى ثلاث عشرة سنة	ولقد كنت مستنطقاً مـدى ثلاث سنوات فاصبحت مستنطقـــاً (بفتح الطاء) مدى ثلاث عشرة سنة
٥٦	٢	الدجالين	من الدجالين
٦٢	١	يسوح	يسوع
٦٤	١٢	حديدة	جديدة
٧١	٦	الشاس	الشاش
٨٣	٨	(الامفوتروبين)	و(الامفوتروبين)
٨٣	١٥	ان تكون	على ان تكون
٩٢	٣	الصور التقارير	الصور والتقارير
٩٤	٩	دافي‌ء	دافىء
١١٣	٨	حسن	أحسن
١١٦	١٦	له كلية	له ذاكرة كلية
١١٨	٢٠	يقولو	يقولوا
١٢١	٥	ابان	إبّان
١٤٠	٣	نستحم	تستحم
١٤٧	٨	بلية	بليلة
١٥٠	٨	ربا	رياء

فهرست الكتاب

أنجز طبع هذا الكتاب
في ١٥ كانون الثاني سنة ١٩٥١
مطبعة النسر – بيروت

منشورات مجلة الورود